قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

شرح الكلمات:

الحق: حَقَّه حقًّا: غلَبه على الحق. وحقَّ الأمرَ: أثبتَه وأوجبَه؛ كان على يقين منه. وحقَّ الخبرَ: وقَف على حقيقته. والحقُّ: ضدُّ الباطل؛ الأمرُ المقضيُّ؛ العدلُ؛ الملكُ؛ الموجودُ الثابتُ؛ اليقينُ بعد الشك؛ الموتُ؛ الحزمُ (الأقرب).

ربك: ربُّ كل شيء: مالكُه؛ مستحقُّه أو صاحبُه. رَبَّ الشيءَ: جمَعه؛ ملَكه. رَبَّ القومَ: ساسَهم وكان فوقهم. رَبَّ النعمةَ: زادها. ربَّ الأمرَ: أصلحَه وأتمَّه. رَبَّ الدُّهنَ: طَـــيَّـــبَه وأجاده. رَبَّ الصبيَّ: ربَّاه حتى أدركَ (الأقرب).

ليثبّتَ: ثَبَتَ الأمرُ عند فلان: تحقَّق وتأكد. ثبَت فلانٌ على الأمر: داوَمَه وواظَبَه. ثبَّتَه وأثبتَه: جعَله ثابتًا في مكانه (الأقرب).

التفسير: لقد رد الله ﷻ هنا على طعن الكفار بطريق آخر فقال:

أولاً: ﴿قُلْ نزّله روحُ القدس﴾.. أي أن هذا الكتاب يحتوي على تعليم مقدس طاهر جدًّا، فلو كان من افتراءِ كذابٍ للزم أن تروا فيه ما يدل على مصلحة ومكسب لمن يختلقه. اقرؤوا القرآن كلَّه، فهل تجدون فيه ما يدل على أي أثر لجشع أو مصلحة شخصية من قبل محمد؟ كلا، بل إن هذا الكلام ينمّ عن روح القداسة والطهارة. فما دمتم قد جرّبتم هذه الطهارة والقداسة في هذا الكلام من جهة، ومن جهة أخرى بدا لكم اختلاف بينه وبين الأسفار السابقة، ولم تستطيعوا التوفيق بينهما، فكان الأَولى بكم أن تدركوا من ذلك بمنتهى السهولة أن تلك الأسفار لا بد أن تكون قد تعرضت للتلاعب والتحريف، بدلاً من أن تستنتجوا من ذلك أن القرآن ليس من عند الله؛ إذ من المستحيل أن يخلو وحي الله من روح القداسة والطهارة، ويتسم كلام المفتري بهذه الميزة!

وقال ثانيًا: إنه ﴿بالحق﴾ نزّله.. أي أن هذا الكتاب مشتمل على ما هو حق وصدق. إن كل قضية اختلف فيها القرآن مع الأسفار السابقة – إذا لم يكن سببه اختلاف الحاجات باختلاف الزمن – فستجدون فيها الحق مع القرآن دومًا، إذ ستجدون العقل مؤيدًا لموقف القرآن ورافضًا لموقف الكتب السابقة، مما يشكّل برهانًا ساطعًا على صدق القرآن الكريم. خذوا مثلاً قضية عبادة الإسرائيليين للعِجل، فإن القرآن الكريم يبرئ ساحة هارون عليه السلام من هذا العمل الوثني (طه: ٩١)، ولكن التوراة تتهمه بالتورط في عبادة العجل؛ وأي شك في أن الحق مع القرآن، لأن العقل يرفض تورط نبي من الأنبياء في الشرك. ثم إن التوراة نفسها تذكر أن الذين اتخذوا العِجل إلهًا قُتلوا، ولكنها تعود وتعارض نفسها بنفسها حيث تقول بعد ذكر حادث العجل مباشرة بأن الله تعالى لم يأمر بقتل هارون بل أنعم عليه بشرف خاص إذ جعل عملَ الكهانة خاصًّا بنسله. وهذا يدل أن هارون سلك في حادث العجل سلوكًا محمودًا، ولم يتورط في الشرك كما اتهمته التوراة من قبل (خروج ٣٢: ٢٧ و٢٨، خروج ٤٠: ١٢– ١٥).

إذن فما من أمر قد اختلف فيه القرآن مع الكتب السابقة إلا وثبت، بناء على العقل أو النقل أو بكليهما، أن موقف القرآن صحيح وموقف التوراة باطل. مما يؤكد أن اختلاف القرآن مع الأسفار السابقة ليس دليلاً على أنه من افتراء محمد وليس من عند الله تعالى، بل إنه برهان أكيد على أن القرآن وحي إلهيّ جديد محفوظ، وأن الكتب السابقة قد صارت محرفة مبدلة.

وثالثًا: والدليل الثالث الذي تذكره هذه الآية على كون القرآن من عند الله تعالى هو أنه هُدىً متجسد.. أي أنه ينشئ بين الله والعبد صلة سليمة ويوصله إلى العتبة الإلهية؛ وهذا التأثير لا يمكن أن يوجد في كلام المفتري. فما دام العمل بالقرآن يوصل الإنسان إلى الله تعالى بينما تخلو الكتب السابقة من هذه الميزة اليوم، فثبت أن تلك الأسفار قد نزلت من عند الله تعالى فعلاً إلا أنها فقدت الآن

الحيوية والتأثير إذ لا تلبي الحاجات التي يُتوقع منها تلبيتها؛ ولذلك فالحق مع القرآن عندما يختلف معها.

ورابعًا: إنه ﴿بشرى للمسلمين﴾.. بمعنى أن العامل بالقرآن الكريم يرث بالفعل أفضال الله تعالى، ويُري الله ﷻ في تأييده آيات من عنده. فلو كان محمد مفتريًا فكيف حقق هذه البشارات لصالح العاملين بكتابه. فلا شك أن ما يقدّمه من تعليم هو من عند الله تعالى الذي يحقق هذه البشارات، لأن المفتري يمكن أن يدّعي دعاوى عريضة، ولكنه لا يقدر على تحقيقها.

هذه هي البراهين الأربعة التي ساقها الله ﷻ في هذه الآية ردًّا على اعتراض الكافرين، والحق أن كل واحد منها ليكفي وحده لإبطال مطاعنهم.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٤﴾

شرح الكلمات:

بشرٌ: البشر الإنسانُ ذكرًا وأنثى، واحدًا أو جمعًا، وقد يُثنَّى كقول القرآن: ﴿أنؤمن لبَشَرَينِ مثلنا﴾ (الأقرب).

لسان: المِقْوَلُ أي آلةُ القول؛ اللغةُ، مؤنَّثٌ وقد يذكَّر باعتبار أنه لفظٌ، فيقال: لسانُه فصيحة وفصيح.. أي لغتُه فصيحة أو نطقُه فصيح (الأقرب).

يُلحدون: لحَد بلسانه إلى كذا: مالَ. ألحدَ فلانٌ: مالَ عن الحق (المفردات).

أعجَميٌّ: الأعجمُ: مَن لا يُفصح ولا يبيّن كلامَه وإن كان من العرب؛ مَن ليس بعربي وإن كان أفصح بالعَجَمية (الأقرب).

التفسير: تتحدث هذه الآية عن اعتراض آخر للكافرين ما زال حتى اليوم موضع نقاش بين المسلمين والنصارى، وقبل أن أبين معاني هذه الآية أود أن أكشف زيف هذا الاعتراض.

قال الكافرون أن محمدًا – ﷺ – لا يتلقى الوحي من الله تعالى، وإنما يعلّمه أحد الناس. إن القرآن الكريم لم يسمِّ هذا الشخص، ولكن يبدو من كلمات هذه الآية أنهم قصدوا بذلك شخصًا معينًا كانوا يرددون اسمه في دعايتهم ضد النبي ﷺ. ويقول القرآن ردًّا عليهم: لسان محمد عربي ولسان ذلك الشخص أعجمي، فكيف يمكن لمحمد أن يؤلف كتابًا عربيًّا مُبينًا باستعانة مَن لسانه أعجمي؟

لقد نقل المفسرون عن هذا الشخص روايات شتى منها: قيل هو عبدٌ لِحُوَيْطَب بن عبد العزّى اسمُه عائش أو يعيش، كان يقرأ الكتب، وقد أسلمَ وحسُن إسلامه؛ وكان الكفار يقولون أنه يعلّم محمدًا. قاله الفراء والزجاج (روح المعاني).

وقال مقاتل وابن جبير: هو أبو فُكَيهة، وكان مولى لامرأةٍ بمكة. قيل: اسمه يسار، وكان يهوديًّا (المرجع السابق).

"وأخرج آدم بن أبي أياس والبيهقي وجماعةٌ عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان نصرانيان من أهل "عين التمر" يقال لأحدهما يسار وللآخر جبر. كانا يصنعان السيوف بمكة، وكانا يقرءان الإنجيل. فربما مر بهما النبي ﷺ وهما يقرءان، فيقف ويستمع. فقال المشركون: إنما يتعلم منهما" (المرجع السابق).

"وفي بعض الروايات أنه قيل لأحدهما: إنك تعلِّم محمدًا ﷺ؟ فقال: لا، بل هو يعلّمني" (المرجع السابق).

"وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان بمكة غلام أعجمي رومي لبعض قريش يقال له بلعام، وكان رسول الله ﷺ يعلّمه الإسلام. فقالت قريش: هذا يعلّم محمدًا ﷺ." (المرجع السابق)

وقال السيوطي: هو قَينٌ نصراني كان النبي ﷺ يدخل عليه (الجلالين).

وفي رواية في "الدر المنثور" * أنهم عَنَوا به عبدًا لأوسة بن ربيع اسمه عداس.

"وفي رواية أنه عداس غلام عتبة ابن ربيعة" (القرطبي)

وقيل: إنه سلمان الفارسي ﷺ (روح المعاني والكشاف).

أما المستشرقون فقد نقل الدكتور سيل عن الدكتور بريديا قوله في كتابه "سيرة محمد": كان الناس يقولون إن محمدًا كان يتعلم على يد عبد الله بن سلام الذي كان شهيرًا بين اليهود باسم عبديا بن سلوم. ثم يعلّق الدكتور سيل على ذلك قائلا: إن د. بريديا قد أخطأ فظنَّ أنه عبد الله بن سلام. لا، بل هو سلمان الفارسي.

ويضيف د. سيل: هناك رأي سائد بأن محمدًا استعان بقسيس نسطوري اسمه "سِرجِيوس"، وهو بحيرا الراهب الذي قابل محمدًا خلال سفره إلى الشام للتجارة بأموال السيدة خديجة. وقد استشهد د. سيل على ذلك بقول للمؤلف الشهير المسعودي الذي كتب بأن بحيرا الراهب كان يُعرَف عند النصارى باسم "سرجيوس" (تفسير القرآن لـِ "ويري").

أما القسيس "ويري" فيقول بعد نقل شتى الآراء والروايات: مهما اختلفت الروايات في تحديد اسم هذا الشخص فإننا نتوصل منها إلى نتيجة حتمية أن محمدًا ﷺ كان قبلَ الهجرة يملك من الوسائل ما مكّنه بالاستعانة ببعض اليهود والنصارى. والسور القرآنية من أواخر الفترة المكية تشكل دليلاً قاطعًا لا يمكن رفضُه على استعانة محمد بهؤلاء، حيث تذكر هذه السور القِصصَ الواردة في كتب اليهود والنصارى.

ثم يضيف هذا القسيس: يبدو من هذه الآية أن جيران محمد كانوا يتهمونه بالاستعانة بالأديان الأخرى، ولكن ما رد به القرآن على هذا يكشف في الواقع

* ورد في "تفسير فتح البيان" – لا في "الدر المنثور" – ما يلي: "وفي رواية اسمه عداس". (المترجم)

ضعف موقف محمد. ولذلك فقد علّق السيد أورنلد على ذلك قائلاً: بالرغم من التسليم بكونهم من الأعاجم فإن هذا لا يمنعهم من أن يهيئوا لمحمد مادة للتأليف.

ثم يعلق "ويري" قائلا: وهذا هو بالضبط ما كانوا يفعلون لمحمد. كانوا يمدّونه بالمادة الخام، فكان يصوغ منها القصص والأحداث كما يحلو له تأييدًا لدعواه، ليعزوها إلى الله تعالى قائلا: هذا ما نزل به الملاك جبريل عليّ من عند الله ﷻ. ولا نتردد في تكرار هذه التهمة القديمة نفسها بأن محمدًا كان يفتري على الله الكذب (المرجع السابق).

إلى هنا نقلتُ آراء المفسرين المسلمين وأفكار المؤرخين المسيحيين وأقوال القسيسين، والآن أتوجه إلى بيان مفهوم الآية.

يتضح من هذه الآية أن بعض الكافرين كانوا يقولون إن شخصًا يعلّم محمدًا ﷺ ما يعرضه على الناس باسم القرآن. فرد الله عليهم أن لسان ذلك الشخص أعجمي، ولكن القرآن عربي مبين. ويقول الكتّاب النصارى إن هذا الجواب ليس بسليم، لأن المعترضين ما كانوا يقولون بأن هذا الشخص كان يصوغ مفاهيم القرآن في قالب اللغة العربية، وإنما كان يمدّ محمدًا ﷺ بما ورد في كتب اليهود من مطالب ومفاهيم، فكان محمد يصوغها بأسلوبه العربي.

والرأي عندي هو:

أولاً: لا بد للباحث – بهدفِ فهمِ أي كتاب – من أن يفحصه أولاً بشكل عام. فلو كان القرآن يرد على المطاعن الأخرى أيضًا بكلام تافه يُعوزه القوة والإقناع – كما يزعم القسيس "ويري" والسيد أورنلد بصدد هذه الآية– فيمكن أن نعير رأيَهما اهتمامًا، أما إذا ثبت أن ردود القرآن الكريم على مطاعن المعترضين الأخرى مقنعة ومصحوبة بالأدلة والبراهين فلا مناص من أن نقول إن القسيسين لم يفهموا اعتراض الكفار أو لم يستوعبوا رد القرآن عليهم.

وثانيًا – إذا كان جواب القرآن غير مقنع – كما يزعم القُسس – فلماذا لم ينبرِ أهل مكة لرفضه؟ أعني إذا كان اعتراضهم هو نفس ما يفهمه هؤلاء القُسس

فكان يجب أن يردّ الكفار على محمد ﷺ قائلين: إنا لا نقول بأنك تصوغ هذا الكلام العربي بمساعدة أحد من العبيد اليهود أو المسيحيين، وإنما نقول إنه يزودك بالمادة الخام، لتعرضها علينا بأسلوبك العربي. ولكنا لا نجد في التاريخ حتى رواية ضعيفة سجّلت مثل هذا الاعتراض من قبل الكفار؛ علمًا أنه لا يمكن لأحد أن يظن أن المسلمين ربما أخفَوا اعتراض الكفار هذا و لم يدوّنوه في تاريخهم، ذلك لأن المسلمين قد سجّلوا بأيديهم في كتب الأحاديث عشرات الروايات التي تمثّل إساءة إلى النبي ﷺ، فكيف يمكن أن يخافوا من نقل اعتراض الكفار هذا؟

فثبت من صمت الكفار أنهم أدركوا بهذا الرد القرآني أن محمدًا قد فهم اعتراضهم جيدًا، وأجابهم بحسبه أيضًا.

والآن تعالَوا نَرَ ماذا يقصد القرآن الكريم بهذا الجواب؟ ولكي نستوعب مراد القرآن هنا يجب أولاً أن نفهم جيدًا معنى كلمة ﴿أَعْجَمِيّ﴾. هناك كلمتان في اللغة العربية تُستخدَمان للعرب وغير العرب هما: العرب والعجم. والأعجمي مشتقة من العجم، فقد ورد في القاموس: "رجلٌ أعجمُ وقوم أعجمُ" (تاج العروس).. أي من ليسوا من العرب.

كما تذكر القواميس أن الأعجم مَن لا يُفصح ولا يبين كلامَه وإن كان من العرب. والأعجم أيضًا مَن في لسانه عجمةٌ وإنْ أفصَحَ بالعربية. والأعجمي مثلُ الأعجم (تاج العروس).

والجدير بالذكر هنا أن كلمة ﴿أعجمي﴾ لم ترد هنا صفةً لذلك الشخص وإنما جاءت وصفًا للسانه حيث قال الله تعالى: ﴿لسانُ الذي يُلحِدون إليه أعجميٌّ﴾ .. أي أن لغته غير لغة العرب، أو أنه ركيك اللغة لا يقدر على التعبير الفصيح رغم كونه من العرب أو رغم تكلُّمه بالعربية.

وعلى ضوء هذين المعنيين للأعجمي يمكن تفسير الآية كالتالي:

١- يقول الكفار: هناك شخص آخر يعلّم محمدًا، ولكن الذي يعزون إليه هذا القرآن لغته غير عربية.

٢- أو أن ذلك الشخص لا يقدر على التعبير عن أفكاره بطريقة سليمة، ولكن لغة القرآن عربية تبلغ من الفصاحة والبلاغة بحيث تفيض بالمعاني والمعارف.

وكلا الجوابين معقول جدًا ومدعَّم بالدليل ومفحم للخصم، ذلك لأن الذي يجهل اللغة العربية لا يمكن أن يعلّم أحدَ العرب شيئًا، كما أن الذي تكون حالته العقلية متردية بحيث لا يقدر على التعبير السليم لا يستطيع هو أيضًا أن يزود غيرَه بشيء من المعارف.

والآن أخبركم من هو الشخص الذي كان الكافرون يقصدونه بقولهم ﴿إنما يعلّمه بشرٌ﴾. لقد اختلفت الروايات في اسمه، ولكني أرى أن الرواية التي تقول إن اسمه "جبر" هي الأقرب إلى الصواب؛ ذلك لأن العبيد الآخرين الذين وردت أسماؤهم كانوا ممن أعلنوا إسلامهم، وكانوا يقابلون النبي ﷺ جهارًا نهارًا دونما انقطاع، فلا مبرّر لأن يختار الكافرون واحدًا منهم فقط ليصوّبوا إليه أصابع الاتهام، بل لاتهموهم جميعًا لو أرادوا ذلك. فأرى أن هذا الشخص الذي كان منفردًا من بينهم هو جبر الذي أسلم متأخرًا جدًا. كان لا يحضر مجلس النبي ﷺ، بل كان النبي يمر عليه أحيانًا وهو يقرأ آيات من الإنجيل أثناء عمله السيوف، كما تذكر الرواية. ويبدو أنه كان يقرأ الإنجيل مندفعًا بحماسه الديني وهو يضرب الحديد لعمل السيوف، فكانت لغته الأجنبية تجتذب انتباه المارة، فكانوا يجتمعون حوله متفرجين. ويبدو أن الرسول ﷺ أُعجب بحماسه الديني، فكان يقف عنده في بعض الأحيان، ليبلغه دعوة الإسلام، عسى أن يدفعه حماسه الديني للتفكر في مسائل الدين بجدية. فأشاع بعض من رأى النبيَّ ﷺ عند الرجل أنه يعلّم النبيَّ؛ حيث تذكر إحدى الروايات المذكورة أعلاه أن الناس سألوه أو صاحبَه: هل أنت تعلِّم محمدًا؟ فقال: لا، بل هو يعلّمني.

ويتضح من هذا الحوار أن هذا هو الشخص الذي أشار إليه الكفار. فرد الله ﷻ عليهم بقوله ﴿لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾.. أي أنه لا يعرف اللغة العربية بتاتًا، أو أن معرفته بالعربية ضئيلة جدًّا بحيث لا يمكن أن يقال عنه إنه يعرفها، ولكن لغة القرآن الكريم عربية فصيحة، فكيف تبادلا الآراء والأفكار فيما بينهما يا تُرى؟ إن اللغة هي الوسيلة الوحيدة التي كان بإمكانه أن يعلّم بها النبيَّ تعاليم

دينه، ولكن لسان النبي عربي، ولسانه أعجمي، فكيف يستفيد العربي من معلومات الأعجمي؟

من الذي يمكن أن ينكر معقولية هذا الجواب؟ إنه معقول جدًّا.

والمعنى الآخر الذي يمكن أن تفسَّر به هذه الآية هو أن الشخص الذي يُتّهم بتعليم النبي ﷺ لغته الأم عربية، ولكنه غير قادر على التعبير عما يريد قوله. ونظرًا إلى هذا المعنى أيضًا فإن جواب القرآن على الاعتراض قوي ومفحم تمامًا، إذ قيل: إن لسان القرآن واسع المعاني بحيث سمِّي بكل جدارة ﴿عربي مبين﴾.. أي أنه بنفسه يرد على كل اعتراض أول بأول ردًّا واضحًا مقنعًا؛ فكيف يمكن لشخص بليد غير قادر على التعبير السليم عن خواطره أن يعلّم محمدًا ﷺ هذه المعارف السامية التي جاءت فيها كل الدعاوي مصحوبة بأدلتها، والتي يجد فيها القارئ حلولاً مقنعة لجميع الإشكالات التي قد تتولد في ذهن الإنسان.

وهذا الجواب أيضًا يبلغ من القوة بحيث لا يحوم الشك حول صوابه ومعقوليته.

رب قائل يقول هنا: أليس من الممكن أن يقص ذلك العبدُ البليد على النبي ﷺ حتى بأسلوبه الرديء أحداث الإنجيل، فيصوغها النبي بالعربية؟ والرد على هذا السؤال يكمُن في كلمة ﴿مبين﴾، ذلك أن هذا العبد لو كان يعلّم النبيَّ ﷺ تلك الحقائق في شكلها الناقص فبأي وسيلة تمكَّنَ النبي من تحويلها إلى حقائق مُبِينة.. أي التي تشكّل بنفسها برهانًا على صدقها وحقّانيتها؟ هل من أحد في الدنيا يستطيع أن يحوّل الكذبَ أو الخطأ إلى حقيقة مدعَّمة بالبراهين بحيث يتضح صدقها كالشمس في رابعة النهار؟

ومن المسيحيين من يثير هذا الاعتراض بأسلوب آخر، ويقول: إن القرآن يدّعي بأنه يحكي من كتب اليهود والنصارى أمورًا لم يكن لمحمد أن يطلع عليها لكونه أُمِّيًّا، فثبت بذلك أن الله تعالى هو الذي أخبره بها؛ ولكن الواقع أن محمدًا كان يسمع من بعض العبيد المسيحيين روايات خاطئة لا ربط بين أحداثها ثم يضيفها إلى القرآن، ولا يتطلب هذا بالضرورة أن يسمعها مِن ذوي الذكاء الخارق. وبما أن القرآن قد سرد

هذه القصص سردًا خاطئًا فثبت أن محمدًا قد سمعها من عبد بليد كهذا. فما يقوله القرآن لا يدفع عنه الاعتراض، وإنما يقوّيه أكثر!

وجواب ذلك هو أن الدعوى التي يعزوها المسيحيون هنا إلى القرآن الكريم لم ترد فيه في أي مكان. إن القرآن لا يعلن أبدًا بأنه ما دام قد ذكر أمورًا وردت في أسفار أهل الكتاب فثبت أنه من عند الله تعالى، وإنما يبرهن على صدقه بكونه يحوي حقائق ومعارف لا توجد حتى في أسفار أهل الكتاب. فمثلا قد أعلن الله قبل قليل في هذه السورة نفسها ﴿تالله لقد أرسَلْنا إلى أممٍ من قبلك فزيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم فهو وَلِيُّهم اليومَ ولهم عذابٌ أليمٌ* وما أنزلْنا عليك الكتابَ إلا لتُبيِّنَ لهم الذي اختلَفوا فيه وهُدًى ورحمةً لقومٍ يُؤْمنون﴾(الآيتان: ٦٤ و٦٥). فهذه الآية تحدثت أولاً عن بعث الرسل في الأمم السالفة ثم عن نزول القرآن الكريم، وإنها لم تقل إن القرآن ما دام يذكر ما ورد في كتب الأنبياء السابقين فثبت أنه من عند الله تعالى، بل تقول إن الناس أعرضوا عن الأسفار السابقة واتبعوا الشيطان، فوقعوا في شتى الاختلافات والنـــزاعات، وقد جاء القرآن ليفصل فيما اختلفوا فيه، وليكشف الحقائق التي اختفت عن أعينهم.

فبعد هذه الدعوى الصريحة في القرآن كيف يصح الزعم بأن محمدًا ﷺ كان يؤسس صدقه على ما كان يسمعه من بعض العبيد من قصص كتب الأولين!

ثم إن الآية التي نحن بصدد تفسيرها أيضًا تعلن أن فضل القرآن لا يكمُن في اقتباسه من كتب الأولين، بل لأنه ﴿مبين﴾. ذلك لأن كون الكتاب مبينًا يتطلب أن يحتوي ذلك على معارف واسعة خفية عن الأعين، ويبين كل الحقائق مع أدلتها، ويرد على كل الاعتراضات بأجوبة مقنعة. ولا يمكن حتى لأذكى الأذكياء أن يساعد محمدًا في تأليف مثل هذا الكتاب، ناهيك أن يُتوقع هذا من ذلك العبد الذي يتهمونه بالتعلم على يده.

قد يقول البعض هنا: من الخطأ أن نعتبر ذلك العبد بليدًا جاهلاً، فقد يكون محمد يستعين بعالم كبير آخر. والحق أن الكُتّاب النصارى الذين اعتبروا

"سرجيوس" معلّمًا للرسول ﷺ إنما فعلوا ذلك للسبب نفسه، مما يدل على كونهم أذكى من الآخرين حيث أدركوا أن البيان القرآني حول القضايا المختلَف فيها بين الإسلام وأهل الكتاب أسمى من أن يؤلفه حتى أحد من المسيحيين ذوي الثقافة العالية، بَلْهَ ذلك العبد البليد، فاقترحوا شخصية وهمية باسم "سرجيوس"، قائلين: إنه كان راهبًا نسطوريًّا، وكان يعلّم محمدًا.

وبالرغم من أن الكتّاب النصارى الآخرين أنفسهم قد أبطلوا هذا الرأي بالأدلة التاريخية، إلا أنني أود الرد عليه من الناحية العقلية. الحق أن النصارى لا يسيئون بهذا الرأي إلا إلى ديانتهم، إذ يعني ذلك أن الصورة الحقيقية لأهل الكتاب إنما هي تلك التي يرسمها القرآن وإن كان بعض البشر قد ساعد محمدًا في رسمها! ألا يعني هذا، يا تُرى، بطلان ديانتهم؟ لأن غاية ما حصل هو أنهم اعترفوا ببطلان ديانتهم وإن تعللوا بأنهم قد جعلوا القرآن أيضًا عرضة للشكوك والظنون! ولكن الظن لا يغني من الحق شيئًا. فإن ما يعزونه إلى القرآن قد أعلن علماؤهم أنفسهم أنه ساقط عن الاعتبار، ثم إن رأيهم هذا لا يُبقي من ديانتهم شيئًا، لأنه بمثابة اعتراف منهم بأن كل ما ورد في القرآن من اختلاف مع أهل الكتاب إنما هو نتيجة بحث مستفيض قام به علامّة بحّاثة من خلال الفحص والتنقيب في المكتبات اليهودية والمسيحية، وكشف أخطاء ديانتهم الحالية. إن غاية ما يمكن أن يعلّلوا به أنفسهم هو أن يقولوا: ليست اليهودية ما تقدمه الكتب اليهودية الحالية كالتوراة وغيرها، بل ما يقدمه القرآن، وليست المسيحية ما تقدمه الأناجيل، بل ما يقدمه القرآن. أفلا يعني هذا تصديقهم للقرآن يا ترى؟

وثمة أمر آخر جدير بالذكر. ربما يقول البعض: لماذا تفسَّر جملةُ ﴿لسان الذي يُلحدون إليه أعجميٌّ﴾ بأن الشخص المشار إليه لا يعرف العربية أو لا يتقنها إتقانًا يمكّنه من التعبير السليم بها، ولم لا نفسرها بأن لغته الأم ليست عربية؛ وليس بمستحيل على مثل هذا الشخص أن يتعلم العربية فيما بعد إلى حد الإجادة، فيعلِّم محمدًا؟!

والجواب أن هذه الآية لا يمكن أن تفسَّر بهذا المعنى، لأن القرآن الكريم قد سجل في موضع آخر منه هذا الاعتراض مع الرد عليه، فثبت من ذلك أن هذه الآية لا تقصد ما ذهب إليه المعترضون، وأن القسيس "ويري" مخطئ في قوله بأن رد القرآن على هذا الاعتراض رد تافهٌ يزيد الطين بلةً. ذلك أن القرآن الكريم ما دام قد سبق أن تناول في سورة الفرقان السؤالَ الذي يستنتجه "ويري" وغيره من هذه الآية، وأجاب عليه هنالك جوابًا مفحمًا جدًّا، فكيف يمكن أن يعود ويجيب عليه هنا في سورة النحل جوابًا رديئًا؛ مع العلم أن "ويري" نفسه يعترف بأن سورة الفرقان أسبق نزولاً من سورة النحل، حيث كتب: إن آيات هذه السورة (أي الفرقان) هي من أوائل الوحي المكي لمحمد (تفسير القرآن لـِ "ويري" ج ٣ ص ٢٠٧)، بينما قال عن سورة النحل: إن جميع الشهادات الداخلية والخارجية تدفعنا لاعتبار هذه السورة من أواخر السور المكية (المرجع السابق ص ٢٤). فكيف يمكن لعاقل أن يصدّق أن القرآن قد ردّ على هذا الاعتراض نفسه في سورة الفرقان ردًّا قويًّا، ولكنه بعد حوالي ست سنوات لم يستطع أن يرد عليه بالقوة نفسها؟ لو كانت سورة النحل أقدم نزولاً من سورة الفرقان لجاز لأحد القول أن محمدًا ﷺ لم يستطع فيها الرد على الاعتراض جيدًا، غير أنه وجد الجواب المناسب فيما بعد في سورة الفرقان، ولكن المشكلة أن سورة الفرقان أسبق نزولاً من سورة النحل باعتراف الكتّاب المسيحيين أنفسهم!

وإيضاحًا للأمر أقدم الآن مقارنةً بين ما ورد بهذا الخصوص في سورة النحل وما ورد في سورة الفرقان. يقول الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وقال الذين كفَروا إنْ هذا إلا إفْكٌ افترَاه وأعانَه عليه قومٌ آخَرون فقد جاءُوا ظلمًا وزُورًا * وقالُوا أَساطِيرُ الأَوَّلين اكْتَتَبَها فهي تُملَى عليه بُكرَةً وأَصِيلا * قُلْ أَنزَلَه الذي يعلَم السِّرَّ في السماواتِ والأرضِ إنه كان غفورًا رحيمًا﴾(الفرقان: ٥ – ٧).

قد ذكر القرآن هنا صراحةً الاعتراضَ الذي يحاول "ويري" استنتاجه من الآية التي نحن بصدد تفسيرها في سورة النحل، ويتضح من ذلك جليًّا أن ما أثاره أهل

مكة في سورة النحل مختلف عما أثاروه هنا في سورة الفرقان. ذلك (أولاً) لأن سورة الفرقان تخبر أنهم اتهموا النبي ﷺ بالتعلم على أيدي جماعة من الناس، بينما هنا في سورة النحل وجّهوا أصابع الاتهام إلى شخص واحد. و(ثانيًا) أن سورة الفرقان لم تحدد الجماعة المتهمة بتعليم النبي ﷺ، ولكن هنا في سورة النحل أشاروا إلى شخص معين معروف. و(ثالثًا) أن سورة النحل لم تحدد أي وقت لذلك، ولكن سورة الفرقان تذكر أن عملية التعليم هذه مستمرة بكرةً وأصيلاً. علمًا أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يجتمعون عنده في دار الأرقم بكرةً وعشيًّا لأداء الصلوات وتعلُّم القرآن (السيرة النبوية لابن هشام: ذكرُ مَن أسلم من الصحابة بدعوة أبي بكر). فظن المكيون لغبائهم أن بعض العبيد المسيحيين يجتمعون هناك مع الصحابة ليخبروهم أو يُملوا عليهم ما ورد في كتبهم، فيحفظه الصحابة بكرةً وعشيًّا. ما كان لهؤلاء الجاهلين أن يفكروا أن المسلمين إنما يلتقون هناك لأداء الصلاة، فظنوا أنهم يجتمعون للتخطيط والتآمر.

ولقد مررت شخصيًّا بتجربة مثلها، مما يكشف تمامًا حقيقة سوء الظن كهذا. فمنذ ما يقارب عشرين عامًا كنت في زيارة لمدينة لاهور. فجاء لمقابلتي الزعيم الآري الراحل الشهير "لاله رام بَهغَت" مع زعماء آخرين أحدهم محرر الجريدة السيخية المسماة "شير بنجاب". وتصادف أن كان لي محاضرة في المساء، فمكثوا عندي لسماع المحاضرة أيضًا. ومن كثرة اللقاءات والمشاغل طيلة النهار لم أتمكن من تحضير آيات الذكر الحكيم التي كنت أود الاستعانة بها في محاضرتي. فطلبتُ إلى العالم الجليل المرحوم الحافظ روشن علي رضي الله عنه – الذي كان طويل الباع في استخراج الآيات المطلوبة من القرآن الكريم بسرعة فائقة – أن يجلس على المنصة

بجنبي حتى إذا أشرتُ إليه أثناء الخطاب إلى فحوى آية من الآيات أريد الاستدلال بها، قرأها عليّ.*

وبدأتُ الخطاب، وكلما أردتُ الاستدلال من آية قرأتُ على المرحوم بصوت خافت كلمات من تلك الآية أو أشرت إلى فحواها فكان يقرأ عليَّ الآية كاملةً، فكنت أقرأ الآية وأكمل حديثي. وفي اليوم التالي كتب محرر الجريدة السيخية فيها: لقد حضرتُ المحاضرةَ التي ألقاها البارحة إمامُ جماعةِ قاديان. كانت جميلة فعلاً، غير أنني لما قمتُ بالتحري والتجسس وذهبت وراء المنصة تبين لي أن حضرة الإمام كان قد أخفى هناك عالمًا كبيرًا كان يملي عليه باستمرار الموضوعَ الذي خطب به.

فلم يزل الإخوة يضحكون بسبب هذه الطريفة لأيام كثيرة. ولما أُخبر محرر الجريدة بحقيقة الأمر ندم ندمًا كبيرًا، وقال: يا ويلتاه! كنت أظن أن ذكائي قد كشف سرًّا من الأسرار!!

يبدو أن هذا ما فعله بعض أهل مكة أيضًا الذين أرادوا أن يتباهَوا بذكائهم بين القوم. كان المسلمون لدى فراغهم من مشاغل الحياة اليومية يحضرون في دار الأرقم لأداء الصلاة وقراءة القرآن مع النبي ﷺ بكرةً وعشيًّا، فقال الكافرون: لقد عرفنا السر، إنهم يجتمعون هنا لتأليف القرآن لأجل محمد.

والحق أن في قول الكفار هذا آية لأولي الألباب، إذ اعترف الكافرون أن القرآن الكريم يبلغ من السمو والعظمة بحيث يستحيل أن يؤلّفه شخص واحد، ومن أجل ذلك قالوا: هناك مجموعة من الناس يساعدونه وراء الكواليس في تأليف القرآن: بعضهم يمدّه بالأدلة العقلية، وبعضهم يزوّده بما ورد في صحف الأولين.

والآن أفصّل لكم ما أجاب به القرآنُ في سورة الفرقان على هذا الاعتراض.

---

* مع العلم أن حضرة المؤلف ﷺ كان يلقي الخطب والمحاضرات ارتجالا بدون الاستعانة بأية مواد مكتوبة. (المترجم)

يجب أن نضع هنا في الاعتبار أمرين: (أولاً): هل يمكن لهؤلاء المتهَمين القيامُ بما رُموا به؟ و(ثانيًا) هل يمكن لهذا الكلام الذي يقال أنه من تأليف هؤلاء العبيد أن يؤلفه البشر؟

لقد ردّ القرآن الكريم على السؤال الأول بقوله ﴿فقد جاءوا ظلمًا وزورًا﴾.. أي أن الطاعنين قد ارتكبوا ظلمًا عظيمًا حين اتهموا هؤلاء العبيدَ المساكين بذلك. أفلا يرون أن هؤلاء العبيد قد تعرضوا بسبب إسلامهم إلى أشد العذاب؟ فكيف يمكن أن يعلّم هؤلاء محمدًا ﷺ القرآن، ثم يتحملوا من أجل هذا الكلام الملفَّق أنواع الاضطهاد ليل نهار. فمنهم من نذروا للإسلام أرواحهم. ومنهم من استُخرجت حدقات عيونهم. وكان بينهم زوجان قتلهما الكفار أبشعَ قِتلةٍ حيث طعنوا الزوجة بحربة في فرجها فماتت أمام عيني زوجها، وربطوا قدمي الزوج ببعيرين ونفروهما في اتجاهين معاكسين فانقطع المسكين قطعتين!!. كما عذَّبوا ابنهما أشد العذاب. وطالبهما الكفار أثناء التعذيب مرارًا أن يكفرا بمحمد رسول الله ﷺ حتى يُخلوا سبيلهما، ولكن الزوجين آثرا الموت على ترك الحق. (الإصابة تحت "سمية"، وتفسير الرازي). إنه سيدنا ياسر.. سيد الأحرار الذي كان يُدعى عبدًا. وكان هو الآخر من بين العبيد الذين اتُّهموا بتعليم النبي ﷺ. هل يصدّق العقل أن يؤلف هؤلاء القرآن لمحمد، ثم يَنذروا من أجله أرواحهم تحت وطأة هذه المظالم البشعة؟ لا شك أن ثورة الغضب المؤقتة أعمت أبصار أهل مكة، فلم يبصروا الحقيقة، ولكن أليس في العالم المسيحي اليوم عينٌ تبصر الواقع ولسانٌ ينطق بالحق، فيرفع صوته احتجاجًا على هذا الاعتراض الغاشم الذي طالما ردده أعداء الإسلام؟

والجانب الآخر من السؤال هو: هل يمكن أن يكون هذا الكلام من تأليف هؤلاء العبيد؟ وقد رد عليه القرآن أن ما تسمّونه أساطير كتب الأولين فهي ليست قصصًا، بل هي أنباء أدلى بها عالم غيب السماوات والأرض.. أي فيها

أخبار تتعلق بالمستقبل. والبديهي أن الإنسان لا يستطيع أن يعلم أخبار المستقبل ولا أن يخبر عنها. وأي شك في أن هذا الرد واضح وقوي جدًّا.

إذن فإن سورة الفرقان هي وحدها التي تتحدث عن طعن الكفار بأن مجموعة البشر يعلّمون محمدًا ﷺ، وقد ردت عليه ردًّا مفحمًا بحيث إن كل إنسان شريف لن يردد هذا الاعتراض مرة أخرى.

وأما سورة النحل فلا تعيد نفس الاعتراض، وإنما تتحدث عن اتهام الكفار عبدًا معينًا معروفًا بتعليم محمد ﷺ. والحق أن ذلك العبد كان جاهلا باللغة العربية، وكل ما في الأمر هو أنه كان يردد فقرات من الإنجيل ربما باللغة اليونانية وهو منهمك في عمل السيوف؛ ولما رأى النبي ﷺ حماسه الديني أخذ يقف عنده لتبليغ رسالة الله عسى أن يسمع منه ﷺ كلمةً ترشده إلى الحق. ومن أجل ذلك نجد أن الكفار لما سألوه: هل أنت تعلّم محمدًا؟ قال: لا، بل هو يعلّمني. ولذلك يقول الله تعالى إن ذلك العبد الذي يوجهون إليه أصابع الاتهام أعجمي أي لا يعرف من العربية ما يستطيع به بيان موضوع علمي، بل غاية ما يمكن أن يساعد به النبيَّ ﷺ هو أن يحفّظه عباراتٍ إنجيلية بالعبرية أو اليونانية، وفي هذه الصورة كان لا بد من وجود عباراتٍ يونانية وعبرية في القرآن، ولكن القرآن الكريم كله بالعربية. وحيث إن ذلك العبد لم يكن قادرًا على ترجمة العبارات الإنجيلية إلى العربية، وما دمنا لا نجد في القرآن أية عبارات عبرية أو يونانية.. فمن هو المعلّم ومن هو المتعلم إذن؟

أليس هذا الرد القرآني ردًّا مقنعًا؟ هل هناك أي رد هو أقوى من هذا؟ الحق أنه لن يقول بتفاهته إلا من هو غبي أو من قد أعماه التعصب والعناد؟

ومما يجدر بالانتباه أن الرواية التي أراها أكثر انطباقًا هنا تذكر عبدين، لكنني قد تحدثتُ هنا عن عبد واحد هو جبر؛ وذلك لسببن: أوّلهما أنه يتضح من هذه الآية القرآنية أنهم كانوا يوجهون أصابع الاتهام إلى شخص واحد؛ وثانيهما أن هناك رواية أخرى تذكر عبدًا واحدًا، وهي التي ورد فيها أن الكافرين لما سألوه: هل

أنت تعلّم محمدًا؟ قال: لا، بل هو يعلّمني. فالذي شكّوا فيه هو عبد واحد، وإن كان يشتغل معه هناك عبد آخر في عمل السيوف.

وثمة أمر آخر بالغ الأهمية ويمكن أن يرشدنا إلى الصواب وهو: أكانت التوراة والإنجيل قد تُرجما إلى العربية إلى ذلك الوقت أم لا؟ وهل كانت هذه الترجمة العربية متداولة بحيث يتسنى للعبيد العاديين قراءتُها أثناء عملهم؛ إذ لولا ذلك لما كان بإمكان أولئك العبيد أن يستفيدوا من عبارات الكتب التي لغتها اليونانية أو العبرية، كما لم يكن النبي ﷺ ليستفيد منها، إذ يخبرنا التاريخ أنه لم يكن بين المسلمين أحد يعرف اللغة العبرية إلا عبد الله بن سلام (مسلم: الحدود)، وأما اللغة اليونانية فلم يذكر التاريخ أن أحدًا منهم كان ملمًّا بها، بحسب معلوماتي.

وفيما يتعلق بالأمر الأول فإن بحثي يؤكد أنه لم تكن التوراة والإنجيل قد تُرجما إلى العربية حتى ذلك الزمن. وما دامت ترجمة التوراة والإنجيل أيضًا غير موجودة فما بالك بتيسُّر ترجمة الكتب الهامشية مثل كتاب التلمود وغيره التي تذكر الروايات اليهوديةَ. وإليكم الأدلة المؤيدة لموقفي:

١- لم يكن لدى أهل الكتاب عادةٌ لترجمة "الكتاب المقدس" حتى ذلك الوقت، وإنما اتجهوا إلى ترجمته في القرن الثالث عشر الهجري؛ ولذلك نجد المفسرين المسلمين - الذين حصّلوا كل علم من العلوم المعروفة ليستعينوا بها في تفسير القرآن الكريم - قد ذكروا عند الحديث عما ورد في أسفار أهل الكتاب روايات خرافيةً لا أثر لها في التوراة والإنجيل. ذلك لأنه لم تتيسر لهم ترجمتهما العربية. إذ لو كانت ترجمتهما متيسرة فلا يتوقَّع من الأمة التي درست واستوعبت فلسفة اليونان ومنطقهم أن لا تقرأها؟

٢- كما يتضح من الروايات الإسلامية أن التوراة والإنجيل لم يكونا متوفرين عندئذ إلا باليونانية أو العبرية؛ فقد ورد في صحيح البخاري عن ورقة بن نوفل: "قد تنصَّرَ في الجاهلية، وكان يكتب الكتابَ العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب" (البخاري: كتاب الوحي، باب كيف كان بدء الوحي).

لا شك أن هناك روايات أخرى تذكر أنه كان يكتب من الإنجيل بالعربية، ولكن لا مناص لنا من ترجيح هذه الرواية، لأنه لو كانت التوراة والإنجيل متوفّرَين بالعربية لوُجد بين العرب، إلى جانب ورقة بن نوفل، كثيرون آخرون يقرءونهما بالعربية. بل أرى أن هنالك احتمالاً كبيرًا أن يكون الراوي قد أخطأ وذكَر "العبرانية" مكانَ العربية، إذ لم تتوفر حينئذ إلا الترجمة اليونانية، وكانت الترجمة العبرية شبه منعدمة.

٣- لم تكن حتى لدى القبائل اليهودية المقيمة بالمدينة حينئذ أية ترجمة عربية للتوراة، لذلك نجد أن النبي ﷺ كلما احتاج إلى فحص أمر من التوراة استعان بالصحابي عبد الله بن سلام الذي كان عالمًا بالعبرية (مسلم: كتاب الحدود، باب رجم اليهود).

٤- تؤكد لنا الأحاديث الشريفة أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان بدأ تعلُّم العبرية لكي يستطيع قراءة التوراة والإنجيل (المشكاة: الإيمان).

٥- وشهادة أحد الكتّاب المسيحيين تؤيد موقفي. يقول د. الإسكندر سوتر:

"Arabic versions:
These come partly directly from Greek partly through syriac and partly through Coptic. Mohammad himself knew the gospel story only orally. The oldest manuscript goes no further back than ٨th century…. Two versions of the Arabic are reported to have taken place at Alexandria in the ١٣th century".

(The text and cannon of the new testament, p. ٧٤, Add. ١٩٢٥)

فهو يكتب تحت عنوان "التراجم العربية للإنجيل" أن بعضها تمّت من النص اليوناني مباشرة، وبعضها من الترجمة السريانية، وبعضها من القبطية. وكانت أساس معرفة محمد بالأناجيل هو المعلومات الشفوية فقط. إن أقدم ترجمة عربية للإنجيل لا تعود إلى أبعد من القرن الثامن الميلادي- علمًا أن النبي ﷺ وُلد في القرن السادس الميلادي- ثمة ترجمتان يقال أنهما تمتا بالإسكندرية في القرن الثالث عشر.

لقد اتضح من هذه البراهين أن الإنجيل لم يكن قد تُرجم حتى عصر النبي ﷺ، وأن الذين كانوا يريدون قراءته كانوا يقرؤون النسخ اليونانية أو العبرية. إذًا فلا

يمكن القول أن ذلك العبد المسمى بـــ "جبر" كان يقرأ التوراةَ والإنجيل بالعربية، ويخبر النبيَّ بمحتواهما. الواقع أنه كان يردد ما حفظه من عبارات إنجيلية باليونانية أو العبرية، فغاية ما يمكن أن يفعله النبي ﷺ هو أن يحفظ بعض ما يتفوه به ذلك العبد من كلمات عبرية أو يونانية، ولكن ماذا سيجنيه من ذلك القدر يا تُرى؟

وأخيرًا أود هنا إبراز إشارة قرآنية لطيفة تؤكد أن ذلك العبد هو "جبر".

تتحدث الآيات التالية عن المرتدين، وهناك في حياة "جبر" حادث هام ذو صلة بأحد المرتدين. ذلك أن "جبر" كان مسلمًا في قلبه، ولكنه لم يجهر بإسلامه. ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة اختار عبدَ الله بن أبي سرح بين من اختاره من كَتَبة الوحي، ولكنه شك مرة في وحي القرآن وارتد عن الإسلام. ولما لحِق بالكفار بمكة أخبرهم أن "جبر" مسلم في الواقع، فأذاقوا "جبر" هذا صنوف الأذى لسنوات طويلة (الإصابة تحت "جبر"). ولقد ذكر الله تعالى بعد هذه الآية مباشرةً المرتدين، ليشير إشارة لطيفة إلى أن هذا العبد المتّهَم بتعليم النبي ﷺ سوف يتعرض لمظالم الكفار بسبب أحد المرتدين.

هذا، وثمة أمور هامة أخرى بهذا الصدد ألخّصها فيما يلي للمنفعة العامة.

١- إن القرآن الكريم لم يختلف مع ديانة واحدة فحسب، بل اختلف مع الديانات كلها. فمِن أية ديانة كان ذلك الشخص "المعلِّم"؟ وهل كان يعلّم النبيَّ ﷺ ضد دينه هو؟

٢- لقد صحح القرآن أخطاء ارتكبتها التوراة في سرد أحداث التاريخ. فمثلاً أعلن أن هارون عليه السلام لم يشترك في عبادة العجل، كما برأ ساحة داود وسليمان ونوح من الكفر. وهي أمور قد اضطر كتّاب الغرب اليوم - بعد مرور ١٣ قرنًا على نزول القرآن - لتأييد موقف القرآن فيها، رافضين موقف التوراة. فهل كان باستطاعة عبد من العبيد أن يدل النبي ﷺ على هذه الأخطاء التوراتية؟

٣- إن الأحداث التي سردتها التوراة قد ذكر القرآن حولها معلومات جديدة لم يعلمها أي طائفة من اليهود أو النصارى، ويتأكد صدقها بالبحوث العصرية كل يوم، ومثاله إخبار القرآن أن جثة فرعون محفوظة، وأنه سيتم العثور عليها.

٤- تؤكد الروايات أن حادث وقوف الرسول ﷺ لدى هذا العبد وقع في السنة الرابعة أو الخامسة بعد إعلان دعواه ﷺ، فقد ورد فيها أنه ﷺ كان يقف عنده في زمن المقاطعة الاجتماعية التي فرضها عليه الكفار. ولكن هناك سور من القرآن تتحدث عن المسيحية، مع أنها أسبق نزولاً من حادث المقاطعة هذا مثل سور الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء والفرقان وغيرها. يقول الصحابي ابن مسعود رضي الله عنه - وكان من أوائل المسلمين - عن هذه السور: "إنهن من العِتاق الأُوَل، وهن من تِلادي" (البخاري: كتاب التفسير والأنبياء).. أي أنها من السور القديمة التي نزلت أوائل البعثة والتي هي بمثابة مالٍ تليدٍ لي، إذ حفظتُها منذ فترة طويلة. وهذه السور كلها تذكر وقائع اليهود والنصارى بكثرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٥﴾

شرح الكلمات:

عذاب: راجع شرح الكلمات للآية رقم ٥١ من سورة الحِجر.

أليم: الأليم: الموجِعُ (الأقرب).

التفسير: أي أنهم رغم رؤية الآيات والمعجزات العظيمة يثيرون اعتراضات سخيفة، وبدلاً من قبول هذا التعليم السامي يضحكون عليه ويسخرون، فلا بد أن يحل بهم عذاب مؤلم.

إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

التفسير: لقد قدّم الله ﷻ هنا حياة نبيه ﷺ دليلاً على صدقه، ليقيم الحجة على الكافرين، فقال: إنما يمكن أن يكذِب على الله من لا يؤمن بقدرته ﷻ، ولكن محمدًا رسولَ الله قد نذر نفسه لتوطيد عظمة الله وجلاله في الدنيا، بل يدعو الآخرين إلى تعظيمه ﷻ؛ فلا جرم أنه لا يعترض على مثل هذا الإنسان إلا من اسودّ قلبه كليةً.

والمعنى الآخر هو أنه لا يمكن أن يتجاسر على الافتراء على الله إلا من هو كذاب بالعادة، ولكنكم أنفسكم تشهدون أن محمدًا ﷺ قد عاش بينكم صدوقًا.

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

شرح الكلمات:

مَنْ: يُعبَّر به عن الواحد والجمع (المفردات).

أُكْرِهَ: أَكرهَه على الأمر: حمَله عليه قهرًا. أَكرهَ فلانًا: حمَله على أمر يَكـــرهه – وقيل – على أمر لا يريده طبعًا أو شرعًا، فهو مكرِهٌ وذاك مكرَهٌ (الأقرب).

قلبه: القلب: الفؤادُ؛ وقد يطلَق على العقل، وجمعه قلوب (الأقرب).

مطمئنٌّ: اطمأنَّ إلى كذا: سكَن وآمنَ له (الأقرب).

غضبٌ: الغضب: ثوَرانُ دمِ القلب إرادةَ الانتقام، وإذا وُصف اللهُ تعالى به فالمراد به الانتقام دون غيره (المفردات).

التفسير: إلى هنا رد القرآن على اعتراض ضمني أثاره الكفار حين لفت أنظارَهم إلى الانتصارات التي تنتظر الإسلام في المستقبل، وساق الأدلة على أن مثل هذا الحشر الروحاني يقيمه الله تعالى دائمًا في الدنيا. وبما أن هذه الأنباء قد أدلى بها القرآن على غرار قصص الأنبياء السابقين وحالاتهم لذا لم يلبث الكفار أن قالوا: لقد كنا نعلم من قبل أن القرآن هو من تأليف شخص آخر يزوّد محمدًا بما ورد في كتب الأولين.

أما الآن فقد استأنف القرآن مرة أخرى الحديثَ عن الانتصارات الإسلامية، وأخبر المسلمين أن الترقيات لا تكون مصحوبة بالأمن دائمًا، بل قد تتسبب في بعض الفتن وتثير حماس المعارضين للانتقام، فعليكم أن تحافظوا عندئذ على إيمانكم بشكل خاص. كما نبّههم أن من يرتدد منكم عن دينه لمصلحة دنيوية فسوف يعذَّب عذابًا عظيمًا.

وأرى أن هذه الآية كانت تنطوي على نبأ عن ارتداد عبد الله بن أبي سرح، كما أسلفتُ. فبالإضافة إلى ما ذكرته من قبل من علاقة هذه الآية بما قبلها فبينهما صلة أخرى، وهي أن الكفار كما اتهموا النبي ﷺ بالتعلم على يد العبد "جبر" ليثبتوا أن القرآن كلام البشر، كذلك أرجع ابن أبي سرح ارتداده إلى أن القرآن ليس بكلام الله، بل هو كلام البشر.

لا جرم أن هذا النبأ القرآني من العظمة والروعة بمكان، وتزداد عظمته أكثر عندما نرى أن القرآن الكريم قد أخبر بارتداد هذا المرتد في الفترة المكية حين لم يكن قد تشرّف بعد بكتابة الوحي القرآني، كما أشار القرآن أيضًا إلى الحجة التي سيبرر بها هذا الشخص ارتداده.

ولعل قوله تعالى ﴿إلا مَن أُكرهَ وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان﴾ إشارة إلى "جبر"، فربما لم يجهر هذا بإسلامه بشجاعة خوفًا من اضطهاد الكفار. هناك روايات تقول إن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر (تفسير الرازي)، ولكن يبدو من السياق أنها تنطبق على "جبر" أكثر.

لقد بسط المسيحيون ألسنتهم بالطعن في هذه الآية أيضًا فقالوا إن الإسلام يعلّم الجبن ويسمح بالارتداد اتقاءً من الاضطهاد (تفسير القرآن لـِ "ويري").

الحق أنه قولٌ باطل كمطاعنهم الأخرى، لأن الله تعالى لم يعلن هنا قط أنه سيغفر للمرتد جريمته، بل يقول فقط: ﴿إلا مَن أُكرهَ وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان﴾، أي أنه تعالى ما استثنى المرتد من العقوبة، وإنما فرّق بين فئة المرتدين والفئة السالفة، معلنًا أن الحكم فيهم سيصدر بعد قليل.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٨﴾

شرح الكلمات:

استحبُّوا: استحبَّه: أحبَّه؛ استحسنَه. واستحبَّ الكفرَ على الإيمان: آثَرَه عليه (الأقرب).

التفسير: لقد بين القرآن الكريم هنا أن الإسلام حق نزل من عند الله تعالى، فلا يمكن أن يرتد أحد عنه مللاً منه، بل كل من يرتد عنه إنما يفعل ذلك لغرض دنيوي، وأنّى لهذا الشخص أن يتوقع من الله جزاء حسنًا.

لقد رد الله ﷻ هنا على زعم ابن أبي سرح بأنه ارتد عن الإسلام لأنه وجد القرآن كلام البشر. يقول تعالى إن هذا يخفي السبب الحقيقي لارتداده وهو المطامع الدنيوية.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٩﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١١٠﴾

شرح الكلمات:

طَبَعَ: طبَع الشيءَ: صوّره بصورة ما. طبَع عليه: ختَم عليه. طبَع الله الخلقَ: خلَقهم. طبَع السيفَ: عَمِلَه وصاغَه. طبَع الدرهمَ: نقَشه وسَكَّه (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى إن الذين يرتدون عن دين الحق من أجل المكاسب المادية، لا بسبب خطأ في الفهم، نطبَع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، لأنهم ضربوا أسوأ مثال للأخلاق الذميمة، وآثروا المنفعة القليلة على نعمة كبرى.

وأضاف قائلا: ﴿لا جَرَمَ أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾.. أي ما دمنا نذيق هؤلاء الأشقياء أنواع الخزي والهوان في الدنيا فأي شك في أنه ليس لهم في الآخرة إلا العذاب، لأنها المكان الحقيقي للعقوبة على مثل هذه المعاصي.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١١﴾

شرح الكلمات:

فُتِنوا: فتَن زيدٌ عمرًا فَتْنًا وفتونًا: أوقَعَه في الفتنة ففتَن هو أي وقَع فيها، لازمٌ ومتعدٍّ. فتَنه: أعجبَه. فتَن المالُ الناسَ: استمالَهم. فتَنه فتنةً: خبَره. فتَن فلانًا عن رأيه: صدَّه. فتَن الصائغُ الذهبَ والفضة: أذابَه وأحرقَه بالنار ليَبين الجيدُ من الرديء ويُعلَم أنه خالص أو مشوب. وفُتِنَ الرجلُ في دينه: مالَ عنه. فُتن فلان: أصابته فتنةٌ فذَهَبَ مالُه أو عقلُه، وكذلك إذا اختُبر (الأقرب).

جاهَدوا: جاهَدَ في سبيل الله مجاهدةً وجهادًا: بَذَلَ وُسْعَه. جاهد العدوَّ: قاتلَه (الأقرب).

التفسير: لقد أصدر الله ﷻ هنا حُكمَه في الذين استثناهم من قبل بقوله ﴿إلا من أُكرهَ وقلبُه مطمئن بالإيمان﴾، وهذا الحكم هو أن من لم يقدر على تحمل اضطهاد الكفار وارتكب خطأ الارتداد في الظاهر بينما قلبُه مرتاح بالإيمان فعليه بما يلي:

أولاً- أن يهاجر من الأرض التي أعلن فيها ارتداده خوفًا من أهلها.

ثانيًا- أن يعمل على نشر الدين وكأنه قد نذر نفسه لنصرته.

ثالثًا- أن لا يتوقف عن هذه المجاهدة، بل يظل صابرًا عليها ومثابرًا، حتى يكفّر عن ارتداده بهداية الآخرين.

رابعًا- أن لا يعود لمثل هذا الخطأ أبدًا.

فلو فعَل ذلك كله فسوف يشمله الله ﷻ برداء مغفرته.

فثبت أن توبة المرتد لا تُقبَل إلا بعد هذه التضحيات كلها. إذن أفليس من الظلم العظيم أن يرمي القسيسون الإسلام بأنه سمح بالارتداد في الظاهر اتقاءً من عدوان المعتدين (تفسير القرآن لـِ "ويري")؟! وهذا واحد من الاعتداءات الكثيرة التي لم يزل هؤلاء المسيحيون يرتكبونها ضد الإسلام.

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١٢﴾

شرح الكلمات:

تُجادل: جادَلَه مجادلةً وجِدالاً: خاصمَه شديدًا (الأقرب).

التفسير: لقد وردت كلمة ﴿يومَ﴾ هنا ظرفًا لقوله تعالى من قبل: ﴿إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾.. أي في يوم القيامة الذي ستهتم فيه كل نفس بحسابها بكل جدية ولن تدّخر وسعًا للتخلص من العقاب بأية وسيلة.. سيجد هؤلاء – الذين تخاذلوا و لم يُبدوا الشجاعة الإيمانية مؤقتًا ثم ما زالوا في الإصلاح والتوبة وبذل التضحيات طيلة الحياة كفارةً لخطئهم – اللهَ غفورًا رحيمًا.

فلينظر الذين يستنتجون من آية الارتداد أن الإسلام يعلّم الجبن.. إلى حجم التضحيات التي يطالَب بها المرتدون. كيف يمكن للذي يدرك كبر هذه المسئولية أن يفكّر في الارتداد؟ أنَّى للجبان أن يغادر وطنه، ويجاهد في سبيل الله، ويُوطّن نفسه على القيام بهذه الأعمال طيلة الحياة؟ إنه لا يوفَّق لهذه الأعمال العظيمة إلا الذي صَدَرَ عنه هذا التقصير لتساهل عابر، أو الذي يتوب بعد ارتكاب الخطأ توبة صادقة.

في عهد سيدنا عمر ﷺ أسلم أحد المرتدين المتنبئين هو طُليحة بن خويلد الأَسدي، ويبدو أن ما عامَلَه به عمرُ هو تفسير لهذه الآية. لقد خاض طليحة بعضَ المعارك ضد المسلمين، ثم تاب وأراد أن يدخل في الإسلام، ولكن عمر ﷺ لم يعف عنه. وتصادف بعدها أن اشتبك الصحابي شُرَحْبيل بن حسنة في إحدى الحروب مع أحد القادة الكافرين، وكان شُرَحْبيل نحيف الجثة وضعيفًا فيما يبدو، ولكنه كان ماهرًا في فن القتال بالسيف، فلما رأى الكافر أنه عاجز عن التغلب على شرحبيل ضربًا بالسيف تقدم وبطَشه بيديه ورمى به الأرض. وكاد الكافر أن يجهز عليه بيدَ أن طليحة – الذي كان مسلمًا بقلبه ولكنه كان لا يزال في صفوف الكفار لأن سيدنا عمر لم يقبل توبته – حين رأى هذا المشهد لم يستطع أن يكتم إيمانه أكثر، فبادرَ وضرَب عنقَ صاحبه الكافر، وخلّص شُرَحْبيل من الموت المحقَّق. وتأثر المسلمون من ذلك جدًّا وشفعوا لطليحة عند عمر ﷺ بالعفو عنه. فقال عمر: سأعفو عنه شريطة أن يقضي باقي حياته في الجهاد مرابِطًا على

حدود الدولة الإسلامية. فقضى طليحة باقي أيام حياته مُرابطًا على الحدود، محاربًا الكفار في سبيل الله تعالى، وقضى نحبه مجاهدًا. لا شك أن ارتداده عن الإسلام كان عن عمد، إلا أنني أرى أن سيدنا عمر ﷺ اقترح له هذه العقوبة مستدلاً بالآية السالفة.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٣﴾

شرح الكلمات:

ضرَب الله مثلاً: ضرَبه بيده: أصابَه وصدَمه بها. ضرَبه بالسوط: جلَده. وضرَب له مثلاً: وصَفه وقاله وبيّنه (الأقرب).

رَغَدًا: رغَد عيشُه رغَدًا: طابَ واتّسع. وعِيشةٌ رَغْدٌ ورَغَدٌ: واسعةٌ طيبةٌ (الأقرب).

أذاقها: ذاقَ العذابَ والمكروهَ: نزَل به فقاساه. أذاقَه: صيَّره يذوق (الأقرب).

التفسير: تتضمن هذه الآية نبأً بفتح مكة، ذلك لأن الله تعالى قد سبق أن عقد المقارنة بين الكفر والإسلام وأخبر بمصير الفريقين، فكان هناك احتمال أن يفكر أهل الكفر خطأً أن مكة لن تسقط في أيدي المسلمين لما تتمتع به من حرمة سماوية، حيث كانوا قد رأوا في الماضي القريب كيف أن الله ﷻ حمى الكعبة من أصحاب الفيل جنود أبرهة. لقد أبطل الله تعالى هنا ما كان لدى الكفار من اطمئنان زائف معلنًا أن مكة أيضًا لن تؤوي مثل هؤلاء المجرمين، بل سوف يسلب الله أهلَها الأمانَ الذي يتمتعون به ويسلّط عليهم عذاب الخوف والجوع، لأن تصرفاتهم حَرَمَتْهم رحمةَ الله تعالى.

وبالفعل فقد حل هذا العذاب بنوعيه بأهل مكة بعد هجرة النبي ﷺ. فأما عذاب الخوف فهو نتيجة حتمية للحروب التي خاضوها ضد المسلمين، وأما عذاب الجوع فأصابهم لما وقع عديد من قوافلهم التجارية في أيدي المسلمين، وحين تركوا أموالَهم في الحروب غنائمَ للمؤمنين.

وقد استخدم القرآن هنا كلمة ﴿لباس﴾ إيماءً إلى أن العذاب بنوعيه سيكون شديد الوطأة بحيث يترك آثاره على أبدانهم، فتخفّ أجسامهم، وتتغير ألوانهم، وكأن الخوف والجوع ملتصقان بهم التصاقَ الثياب بالأبدان؟

وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٤﴾

التفسير: لقد زادت هذه الآية الموضوعَ وضوحًا، وأكدت أن القرية المشار إليها هنا هي مكة. فيوضح الله تعالى: لقد تمت الحجة على أهلها إذ بعثنا لتحذيرهم رسولاً من أنفسُهم، ولم نبعثه من الخارج، كيلا يقولوا: كيف نعرف صدقه من كذبه ولسنا بمطلعين على أحواله وسيرته، ولكنهم رغم معرفتهم بأخلاقه الحميدة وبنُصحه لهم كذّبوه، لذلك قرّرنا عقابهم بالعذاب.

لقد أدان الله ﷻ الكفار هنا بجريمتين: الأولى أنهم كذّبوا رسوله، والثانية أنهم كذّبوا ما اختبروه بأنفسهم وشاهدوه بأم أعينهم، حيث أنكروا دعوى النبي ﷺ رغم علمهم أنه لم يكذب في حياته قط.

وقال الله ﷻ ﴿وهم ظالمون﴾.. ليبيّن أن العذاب سيحيط بهم حتمًا على ظلمهم، بمعنى أنه لا يمكن أن ينجو هؤلاء الظالمون من العقاب، فيتحمل أولادهم تبعة أخطائهم، كلا، بل لا بد أن ينال الظالمون جزاء أعمالهم بأنفسهم.

فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

التفسير: لقد نبّأ القرآن من قبل عن عقاب الكفار بالخوف والجوع، والآن يبشر المؤمنين براحة البال وسعة الرزق. يقول سوف ينـــزع الله ﷻ من الكفار رزقهم، ويزيد في أرزاق المسلمين؛ ولكن سيتم هذا مع فرق واضح: ذلك أن الكافرين يكسبون المال بطرق مشروعة وغير مشروعة، ولكن رزق المسلمين سيكون حلالاً طيبًا.. أي سيأتيهم رزقهم من مصدر مشروع، كما سيكون نافعًا للصحة، ومقويًا للجسم والعقل والقلب.

علمًا أن كلمة ﴿طيبًا﴾ نفيٌ للخوف عن المؤمنين، لأن الطعام إنما ينفع الإنسان نفعًا حقيقيًّا ما دام في مأمن من الهموم والأخطار. كما أن قوله تعالى﴿واشكروا نعمت الله﴾ أيضًا يشير إلى المعنى نفسه، أي أنه تعالى قد منّ عليكم بوافر الرزق وراحة البال، فاشكروا له على هذه النعم الظاهرة والباطنة.

ومن الناس من يقول: هل الله بحاجة إلى الشكر من الإنسان، حتى يشكره؟ والجواب:

١- إنه اعتراض سخيف وتافهٌ أصلاً، لأن الشكر تعبير طبيعي ينبع تلقائيًّا من قلب كل إنسان شريف، اعترافًا بنعمة المحسن. فلا يتعلق الأمر بما إذا كان الله ﷻ بحاجة إلى شكرٍ منا أم لا.

٢- الشكر يقوّي إيمان المرء بالتوحيد كما أكدت هذه الآية نفسها. فكما أن الجسم إذا مارس عملاً من الأعمال على التوالي والتكرار أصبح ذلك عادةً عنده، كذلك العقل والقلب يتعودان على الأعمال التي يقوم بها الإنسان بالتكرار. فالذين يشكرون الله ﷻ على نعمه دومًا فإن عملهم هذا يترك في عقولهم

وقلوبهم أثرًا لا يمّحي أبدًا، فيعتادون على الاعتراف بأن كل خير عطية إلهية، وهكذا يصبحون في مأمن من الأفكار الوثنية.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٦﴾

شرح الكلمات:

أُهِلَّ: أَهَلَّ القومُ الهلالَ: رفَعوا أصواتَهم عند رؤيته. أهلَّ الصبيُّ: رفَع صوته بالبكاء. أهلَّ فلانٌ بذكر الله: رفَع صوتَه به عند نعمة أو رؤية شيء يُعجبه. أهلَّ بالتسمية على الذبيحة أي قال بسم الله. ﴿ما أُهِلَّ لغير الله به﴾ أي نُوديَ عليه بغير اسم الله عند ذبحه (الأقرب).

اضطُرَّ: اضطرّه إليه: أحوَجَه وألجَأه فَاضْطُرَّ هو بصيغة المجهول أي أُلْجِئَ (الأقرب).

التفسير: لقد نبّه الله ﷻ المسلمين من قبل أنه سيوسع عليهم الرزق، فعليهم أن يتعلموا من الآن أنه لا يجوز لهم إلا أن يستعملوا ما هو حلال وطيب معًا.

وليكن معلومًا أنه فيما يتعلق بالمال فأساسُ حلِّه أن يُكتسب بطريقة مشروعة، وأما الطعام والشراب فتناوله يتطلب شرطًا إضافيًّا وهو أن لا يكون مما قد نزل التحريم بشأنه. وهذه الآية تفصّل ما هو حلال وما هو حرام.

تكشف لنا الكلمات القرآنية أن الحِلّ هو الأصل فيما يتعلق بالأكل والشرب، وأما التحريم فهو بمثابة الحظر والقيد فحسب. ولكن قال البعض إن الأصل هو الحرمة، لأن الله ﷻ هو المالك، ولا يجوز استعمال شيء من دون إذن صاحبه. وهذا القول الأخير ليس بصحيح، لأن الله تعالى قد قال في القرآن الكريم صراحةً

إنه خلق كل شيء للإنسان، وسخّره من أجله. وبعد هذا التصريح العام صار كل شيء حلالاً للإنسان، إلا ما نهى الله عنه نصًّا أو إشارة.

هناك اختلاف بين العلماء في تفسير ﴿لحم الخِنـــزير﴾، أيُقصَد به شحمُه أم لا (القرطبي). لا شك أن هناك فرقًا بين اللحم والشحم فيما يتعلق باللغة، ولكن المفسرين يرون أن الشحم مشمول في كلمة اللحم. وبالرغم أن حجة المفسرين ليست بقوية مثل حجة اللغويين، لكونها حجة ذوقية فقط، إلا أني أرى أن أكل شحم الخِنـــزير حرام. وحجتي هي قول النبي ﷺ بحرمة شحوم الميتة (البخاري: كتاب البيوع، باب بيع الميتة). وتحريم الخِنـــزير والميتة مذكور في آية واحدة وبكلمات واحدة، فلا بد أن يكون حكمهما واحدًا. غير أن الانتفاع من جلد الخِنـــزير جائز، لأن جلده لا يؤكل بل يُستخدم لمنافع أخرى. فقد ورد في الحديث أن شاةً لأم سلمى رضي الله عنها ماتت، فحملها البعض ليلقوها في الخارج. فقال لهم النبي ﷺ: لم لا تسلخونها وتنتفعون بجلدها؟ فقالوا: يا رسول الله، إنها ميتة! فقال رسول الله ﷺ: إنما حُرّم أكلُها.*

فثبت بذلك أن لا بأس في الانتفاع من جلد الحيوان الذي حُرّم أكله. بيدَ أن استعمال فرشاة الأسنان المصنوعة من شعر الخِنـــزير مكروه، لأن الفرشاة توضع في الفم الذي هو أداة الأكل.

هناك سؤال هام: هل محرمات الأكل تنحصر في هذه الأشياء الأربعة، وليس هناك أي شيء حرام سواها؟

لقد أجاب بعض المفسرين على ذلك بأن "الحصر المستفاد من سياقِ الكلام وتصديرِ الجملة بـــ (إنما) حصرٌ إضافي بالنسبة إلى ما قالت الكفار بتحريمها"

---

* ورد في الحديـــث: "أن النبي ﷺ مَرَّ بشاةٍ لمولاةٍ لميمونةَ ميتةٍ، فقال: ألا أخذوا إهابَها فدبَغوه فانتفَعوا به؟ فقالوا: يا رسول الله، إنها ميتة! فقال رسول الله ﷺ: إنما حُرّم أكلُها" (مسند أحمد ج ٦ ص ٣٢٩).

(التفسير المظهري).. بمعنى أن الكفار قالوا بتحريم البَحيرة والسائبة وغيرهما من الحيوانات، فرد الله ﷻ عليهم أنها ليست بحرام وإنما الحرام ما نذكره هنا. والحصر في مثل هذه الحالة لا يكون لبيان العدد الكلي، وإنما لبيان النوع.

وقال الآخرون أن هذا الحصر زماني، لأن هذه الأشياء حُرّمت أولاً، أما ما سواها فنزل به التحريم فيما بعد. ولكنه جواب يخالف الواقع، كما يدفعنا لاعتبار قول الله تعالى ﴿إنما﴾ منسوخًا، مع أنه لا نسخ في القرآن في أي كلمة منه.

وقد قال البعض الآخر مضطرًّا: إن الآية قد حصرت محرمات الأكل في الأربع المذكورة فقط، ولا شيء حرام سواها (الرازي، وروح المعاني)

وأقول: مما لا شك فيه أن الحصر يكون إضافيًّا أي نسبيًّا في بعض الأحيان، ولكنا نرى أن القرآن كلما تحدث عن محرمات الأكل قد حصرها في هذه الأربع فقط لا غير. لقد ورد هذا التحريم في الأماكن الأربعة التالية: سورة البقرة: ١٧٤، سورة المائدة:٤، الأنعام: ١٤٦، وهنا في سورة النحل. وفي سورتَي الأنعام والنحل يكشف السياق أن الكافرين كانوا يحرمّون الأشياء ويحلّونها كيفما شاءوا، ولكن سورتي البقرة والمائدة خاليتان من أي ذكر كهذا، وإنما تناولت سورة البقرة هذه القضية خلال الحديث عن أعمال الخير، وأما سورة المائدة فذكرتها كموضوع مستقل من دون الإشارة إلى عادة الكفار في التحريم والتحليل؛ وأما هذه السورة أعني "النحل" فقد فصّل اللهُ فيها الحلالَ والحرام معًا. فما دام هذا الحصر موجودًا أيضًا في سورتَي البقرة والمائدة، من دون الحديث عن عادة الكفار في التحريم والتحليل.. فالقول بأن هذا الحصر إضافي ونسبي لا يبدو قولاً معقولاً.

أما الذين يرون أن الحصر زماني أي أن هذا التحريم نزل في البداية، ثم نزل التحريم بأشياء أخرى.. فلا يبدو رأيهم سليمًا كذلك؛ إذ لو كان هذا الحكم منحصرًا في السور المكية لأمكن التسليم بقولهم، ولكن الواقع أنه قد نزل في سورة البقرة أيضًا وهي سورة مدَنية ويمتد زمن نزولها حتى السنة الثالثة بعد الهجرة؛ كما نزل هذا الحكم في سورة المائدة أيضًا وهي من أواخر السور نزولاً.

فما دام هذا الحكم بعينه مذكورًا في السور التي نزلت بعد الهجرة – وهي فترة قد نزل فيها التحريم بأشياء أخرى أيضًا – فثبت أن رأيهم ليس برأي سليم.

أما الذين قالوا إن المحرمات تنحصر في هذه الأربعة فقط فأرى أنهم على حق في ذلك، إذ يستحيل تفسير الآية إلا بهذا المفهوم. وكان ابنُ عباس من الذين قالوا بهذا الرأي حيث سجل البخاري مذهبه هذا برواية جابر بن عبد الله. وهو مذهب ابن عمر أيضًا حيث ورد أنه "سُئل عن أكل القنفذ، فتلا ﴿قُلْ لا أَجِد فيما أُوحي إلي محرّمًا ...﴾ الآية." (أبو داود: كتاب الأطعمة، باب في أكل حشرات الأرض)

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها حين سُئلت عن أكلِ كلِّ ذي نابٍ من السباع ومخلبٍ من الطير قالت: ﴿قل لا أجد فيما أُوحي إلي محرّمًا... ﴾(روح المعاني، سورة الأنعام، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، قوله تعالى: قُلْ لا أجد فيما أُوحي إلي).

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ليس من الدواب شيء حرام إلا ما حرّم الله تعالى في كتابه: ﴿قُلْ لا أجد فيما أوحي إلى محرَّمًا...﴾(المرجع السابق).

وهذا هو مذهب الإمام مالك أيضًا.

أما السؤال: هل يجوز أكل كل ما سوى هذه المحرمات الأربع؟ فقد أجاب عليه بعض الأئمة بـــ نَعَم. ولكني أرى أنه لا يجوز أكل بعض الأشياء، غير أننا لا يمكن أن نسمّيها حرامًا بمفهوم المصطلح الشرعي المعروف. فقد رُوي عن سلمان الفارسي قال: "سُئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفِراء؟ قال: الحلال ما أحلّ اللهُ في كتابه، والحرامُ ما حرّم الله في كتابه" (ابن ماجة: كتاب الأطعمة، باب أكل الجبن). وأستدل بقول النبي ﷺ هذا على أنه ليس لنا أن نطلق مصطلح الحلال إلا على ما سماه الله ﷻ حلالاً، ولا مصطلح الحرامِ إلا على ما سماه الله حرامًا، أما ما بينهما من الأشياء فيكون حكمها تابعًا للحلال أو الحرام، وليس كدلالة النص. وهناك في سورة المائدة أيضًا إشارة إلى هذا الأمر حيث قال الله تعالى ﴿أُحلّتْ لكم بهيمةُ الأنعام إلا ما يُتلى عليكم﴾(المائدة: ٢).. أي أُحلت

لكم الأنعامُ من البهائم إلا التي ذُكرت ضمن قائمة المحرمات. والأنعام أنواع مثل الإبل والمعز والشاة والبقر، فهذه حلال.

ثم قال الله تعالى ﴿حُرّمتْ عليكم الميتةُ والدمُ ولحمُ الخنـــزير وما أُهلَّ لغير الله به والمنخنقةُ والمَوقوذةُ والمتردِّيةُ والنطيحةُ وما أكَل السَّبُعُ إلا ما ذَكَّيْتم وما ذُبحَ على النُّصُب﴾(المائدة:٤).. أي أن هناك محرمات إزاء هذه التي أُحلّت لكم وهي: الأول: كل ما أصبح ميْتًا وإن كان من الحيوانات التي هي حلال، والثاني: الدم وإن كان من الحيوان الحلال أكلُه، والثالث: لحم الخنـــزير، والرابع كل حيوان ذُكر عليه اسمُ أحد غيرِ الله وإن كان من الحيوانات المباحُ أكلُها. ثم فصّل الميتةَ والدمَ أكثرَ فقال: ﴿والمنخَنقةُ والموقوذةُ والمتردِّيةُ والنَّطيحةُ وما أَكَلَ السَّبُعُ إلا ما ذَكَّيْتم﴾.. لأنها ليست محرمات إضافية وإنما هي أقسام الميتة والدم. والمنخنقة: ما مات خنقًا، والموقوذةُ: ما مات نتيجة الضرب الشديد، والمتردِّيةُ: ما سقط من عَلٍ فمات، والنطيحةُ: ما نطحه حيوان آخر فمات.

وبعد هذا البيان كله يقول الله تعالى لرسوله الكريم إن المسلمين ﴿يسألونك ماذا أُحلَّ لهم﴾(المائدة: ٥). فلو كان قوله تعالى ﴿إنما حرّم عليكم المَيتةَ.. إلخ﴾ يعني أنه يجوز لكم أكل ما سوى هذه المحرمات الأربع فلم يكن ثمة داع لهذا السؤال بعد ذلك، لأنه سيصبح لغوًا. ولكن الله تعالى سجل هذا السؤال وردّ عليه بالرغم من بيان الحلال والحرام من قبل، مما يعني أن البيان السابق للحلال والحرام كان يكتنفه شيء من الغموض عند الصحابة فالتمسوا توضيح الأمر أكثر. والله تعالى أيضًا لم يردّ عليهم بأننا قد أخبرناهم بكل شيء، فلماذا يسألون مرة أخرى، بل سلّم بضرورة السؤال وأجاب عليه بقوله تعالى ﴿قُلْ أُحِلَّ لكم الطيباتُ﴾(المائدة: ٥).. أي أن كل ما سوى هذه المحرمات الأربع إذا كان طيبًا فهو حلال، وإلا فلا.

فثبت من ذلك أن ليس كل حلال بطيب، كما لا يجوز أكل إلا ما هو طيب، أما ما لا يتصف بالطِيب فلا يجوز أكله. ولكن لا يمكن أن نسمّيه حرامًا؛ وقد

أشار الرسول ﷺ أيضًا إلى هذا حيث قال: الحلال بيّنٌ والحرامُ بيّن وبينهما أمور مشتبهاتٌ لا يعلمها كثير من الناس. ألا وإن لكل ملكٍ حِمًى، ألا إن حِمَى الله في أرضه مَحارمُه، وكما أن الراعي الحذر لا يرعى غنمه حول الحمى حتى لا تقع في الحمى وهو غافل عنها فيستحق العقاب، كذلك المؤمن لا يرعى نفسَه حول حمى المحرمات حتى لا يؤاخَذ.*

فثبت أن هناك أشياء ما بين الحلال والحرام يشتبه على العامة أمرها، والحكم فيها يكون بالقياس والخبرة والمعلومات الطبية. ورغم أن هذه الأشياء المتشابهة بالحرام لا يمكن أن نسمّيها حرامًا، إلا أنه لا بد من تجنبها لأجل حصول التقوى.

والحكم نفسه يجري على كل ما يصنعه الناس من أشياء جديدة، فعلينا أن نقيسه بالحلال البيِّن والحرام البيِّن، فإن كان أشبَهَ بالحلال أكلناه، وإن كان أشبهَ بالحرام تجنبناه. ومثال ذلك التبغُ؛ فإن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام لما سئل عن التبغ قال: إنه قد اختُرع حديثًا، ولكن نظرًا إلى تأثيره أرى أنه لو كان في زمن النبي ﷺ لنهى عن تعاطيه (فتاوى المسيح الموعود ص ٢٠٦).

الواقع أن الإسلام قد صنّف المأكولات درجات هي: حرام وممنوع، وحلال وطيب. والحرام ما حرّمه القرآن، والممنوع ما منع منه النبي ﷺ وفقًا للمبادئ التي وضعها القرآن، أو ما وُجد بعد النبي ﷺ وكَرِهَ المسلمون تناولَه بعد التحري والتجربة. والحلال ما هو طيب في وضعه الطبيعي، والطيب ما هو جيد في وضعه الحالي؛ بمعنى أن كل ما يجوز أكله في أية حالة فهو حلال، ومثاله لحم الكبش،

* أقرب رواية بهذا المعنى هي: "الحلال بيّنٌ والحرام بيّنٌ وبينهما مشتبِهات لا يعلَمها كثير من الناس. فمن اتقى الشبهاتِ استبرأ لدينه وعِرضه، ومَن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي حول الحمى يوشك أن يرتَع فيه. ألا وإن لكل مَلِكٍ حِمًى، ألا وإن حمى اللهِ محارمُه" (ابن ماجة: كتاب الفتن).

ولكن بما أنه لا يمكن أكله نيئًا فلا يكون طيبًا وهو نيئ، ولكنه يصير طيبًا بعد الطهي. وأفضل الطعام ما هو طيب، ثم الحلال.

ثم هناك أشياء تندرج تحت الممنوع ولا يصح أكلها، فمثلاً في أيام الكوليرا إذا منع الطبيب من أكل الخيار فإنه لن يعود حينئذ طيبًا وإن كان حلالاً وطيبًا في الأيام العادية. والأشياء التي هي دون الحرام أي هي ممنوعة فنقول عنها إنه لا يصح أكلها.. بمعنى أن أكلها سيضر بصحة الإنسان.

ولنتذكر أن الله تعالى قد خلق الحيوانات المختلفة لأغراض مختلفة. فبعضها للزينة لأنه جميل الشكل، وبعضها للغناء لأنه حلو الصوت، وبعضها للأكل لأنه جيد اللحم، وبعضها للتداوي لأن لحمه شفاء لمرض من الأمراض. فيجب أن لا يؤكل لحم الحيوان لمجرد كونه حلالاً، فقد يكون هناك حيوان لا يمثّل لحمه خطرًا على صحة الإنسان، ولكن قد يكون فيه منافع أخرى أفضل؛ فمثلا إذا كان ذلك الحيوان يأكل الديدان التي تضر بالزروع أو بصحة الناس، فلن يعود طيبًا بالنظر إلى منافعه الأخرى هذه، بالرغم أن لحمه حلال وطيب أساسًا؛ لأن أكله سيؤدي إلى حرمان باقي الناس من فوائده العامة.

لقد عُلِّمتُ هذا الدرس منذ الصغر. فذات مرة رجعتُ إلى البيت ببغاء قمتُ بصيدها، فلما رآها أبي سيدنا الإمام المهدي عليه السلام قال لي: محمود، لحمها ليس بحرام، ولكن الله تعالى لم يخلق كل حيوان للأكل. فقد جعل سبحانه وتعالى بعضَ الحيوانات جميل الشكل لكي تتمتع العيون برؤيته، وخلق بعضها حلو الصوت لتتلذذ الآذان بألحانه المطربة.

إذن فقد جعل الله تعالى لكل حاسة من حواس الإنسان نصيبًا من المتعة الموجودة في هذه النعم الحيوانية، فلا ينبغي للإنسان أن يسلب الحواسَّ الأخرى ما يخصّها من المتعة ويعطيها للسان فحسب. هلا نظرت إلى الببغاء وهي جالسة على غصن الشجر؟ أليست هي جميلة حقًّا!

إذن فالطيّب هو ما لا يضر بصحة آكله، كما لا يؤدي أكله إلى سلب حقوق حواسه الأخرى أو حقوق غيره من الناس أو الحيوانات؛ بل من الضروري أن لا يؤدي أكله إلى تجريح مشاعر الآخرين، فقد قال النبي ﷺ: "ما استخبَثْته العربُ فهو حرامٌ" (روح المعاني: سورة الأنعام). ولا يعني الحرام هنا أن آكله سيصبح آثمًا عند الله تعالى، وإنما المراد أنه يجب أن لا يأكله أمامَ العرب، لأن هذا سيؤدي إلى توتر العلاقات.

ولحم البقر أيضًا يندرج تحت هذا البند في هذه الأيام بالهند، فعلى المسلمين أن يأخذوا الحيطة والحذر في أكل لحم البقر أمام الهندوس، ولا يتحدثوا حتى عن أكله عندهم، لأن هذا يؤذي مشاعرهم.*

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

شرح الكلمات:

تصف: راجع شرح الآية رقم ٦٣.

يفلحون: أفلَحَ الرجلُ: فازَ وظفِر بما طلَب. أفلَحَ زيد: نجَح في سعيه وأصاب في عمله (الأقرب).

التفسير: اعلم أن (ما) الواردة في قوله تعالى ﴿لِما تصِف ألسنتُكم) إما مصدرية، والمعنى: لا تقولوا بناءً على كذب لسانكم: هذا حلال وهذا حرام؛

* ذلك لأن الهندوس يقدّسون البقر ويعبدونها. (المترجم)

وإما هي موصولة، والمعنى لا تقولوا عن الأشياء التي تكذب عنها ألسنتكم: هذا حلال وهذا حرام.

والمراد من ﴿ألسنتكم﴾ هنا ألسنة زعماء القوم، لأن كل القوم لا يختلقون الكذب، وإنما زعماؤهم هم الذين يكذبون فيتبعهم الجميعُ.

واللام في قوله تعالى ﴿لتفتَروا على الله الكذبَ﴾ هي للعاقبة، والمراد لا تقولوا هذا وإلا ستكون النتيجة أنكم ستصبحون في عداد المفترين على الله تعالى، لأن الله وحده يملك حق التحليل والتحريم.

ثم قال الله تعالى ﴿إن الذين يفتَرون على الله الكذبَ لا يفلحون﴾، وهذه حقيقة ثابتة، ولكن المسلمين لا يعيرون لها بالاً. والحق أن هذه أكبر علامة للمبعوثين من الله تعالى.

مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٨﴾

التفسير: أي قد ينجو المفترون من عذاب الله لبعض الوقت، ولكنهم لا يعيشون طويلاً، بمعنى أنهم بعد إعلان وحيهم الكاذب لا يمكن أن يعيشوا مثل الفترة التي عاشها النبي ﷺ بعد نشر وحيه.

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٩﴾

شرح الكلمات:

قصصنا: قصَّ أثَرَه يقصُّ قَصًّا وقَصصًا: تتبَّعَه شيئًا بعد شيء، ومنه: ﴿فارتدّا على آثارهما قَصصًا﴾ أي رجعا في الطريق التي سلكاها يقصّان الأثرَ. وقصَّ عليه

الخبرَ والرؤيا: حدّث بهما على وجههما، ومنه: ﴿نحن نقصّ عليك أحسنَ القصص﴾.. أي نبيّن لك أحسنَ البيان (الأقرب).

التفسير: لقد نبّه الله تعالى هنا الكافرين أن اليهود قد سبق أن ارتكبوا الخطأ الذي ترتكبونه اليوم فعاقبناهم، فسوف تلقون منا نفس الجزاء الذي لقيه هؤلاء اليهود.

لقد اختلف المفسرون كثيرًا في تعيين معنى قوله تعالى ﴿مِن قبلُ﴾، فقال بعضهم إنه إشارة إلى المحرمات المذكورة في سورة الأنعام (تفسير مجمع البيان). ولكن هذا خطأ، إذ قد ورد في سورة الأنعام: ﴿قل لا أجد فيما أُوحيَ إليّ محرَّمًا على طاعمٍ يَطعمه﴾(الأنعام: ١٤٦)؛ فكلماتُ ﴿فيما أوحيَ إليّ﴾ تدل أنه حتى قبل نزول سورة الأنعام كانت هناك أحكام نزلت في شأن التحريم. إذن فقوله تعالى ﴿من قبل﴾ لا يمكن أن يُعتبر إشارةً إلى المحرمات المذكورة في سورة الأنعام.

وهنا نواجه مشكلة أخرى وهي أن هذه المحرمات الأربع ذُكرت في أربع سور فقط: في سورة البقرة وهي مدَنية، وفي سورة المائدة وهي أيضًا مدنية حيث نزلت في أواخر الفترة المدنية (انظر الرازي، تحت قوله تعالى: ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم...)، وهنا في سورة النحل المكية التي تقول إن هذه الأحكام قد قصصناها من قبل، وفي سورة الأنعام المكية التي أشارت إلى نزول هذه الأحكام في الوحي السابق. فلا يمكن أن تكون كلٌّ من السورتين (أي سورتَي النحل والأنعام) تشير إلى الأخرى، لأن كل واحدة منهما لا يمكن أن تكون قبل الأخرى. والمشكلة الأخرى أننا لا نجد هذا التحريم في أي سورة مكية أخرى.

والمفسرون إما لم يهتموا بحل هذا اللغز، وإما أنهم لم يأتوا بأدلة مقنعة. فمثلاً قال بعضهم أن هذا إشارة إلى سورة المائدة. وهذا خطأ، لأن المائدة مدنية (تفسير القرطبي).

أما الإمام الرازي فقال: إن سورة الأنعام هي أول السور التي نزل فيها هذا التحريم، وإن آيتها ﴿وقد فصّل لكم ما حُرّم عليكم﴾ إشارةٌ إلى آيتها الأخرى الواردة بعدها بقليل ﴿قُلْ لا أجد فيما أوحيَ إلي محرَّمًا على طاعم يطعَمه﴾ (انظر تفسير الرازي: سورة الأنعام).

ولكن جواب الرازي هذا ليس بصحيح، لأن الآية التي يعتبرها الرازي مشارًا إليها أيضًا تقول ﴿لا أجد فيما أوحي إلي﴾، مما يعني أنها ليست بأول آية نزل فيها التحريم، بل هناك آية أخرى هي أسبق منها نزولاً وفيها جاء هذا الحكم.

أما صاحب "فتح الباري" فقد رد عليه بجواب غريب ذي قيمة، وعندي أننا لو لم نجد حلاًّ آخر لهذه المعضلة لكان هذا الرد أنسب جواب. إنه يقول: إن هذه الآية من سورة الأنعام تشير إلى سورة المائدة. لا شك أن "الأنعام" أسبق نزولاً من "المائدة"، غير أن "المائدة" كانت في علم الله ﷻ أسبقَ من "الأنعام" من حيث الترتيب النهائي للمصحف، لذلك قد أشار الله تعالى إليها وكأنها قد سبق نزولها، وهكذا برهن على أن ترتيب المصحف الحالي توقيفي أي بأمر الله تعالى.

إن هذا الجواب غاية في اللطف والشفافية ويمكن أن يساعد على حل الآيات الصعبة الأخرى، إذ مما لا شك فيه أن السورَ الأسبقَ نزولاً والآخرَ ترتيبًا في المصحف تحلّ في أحيان كثيرةٍ غوامضَ السور التي هي آخر نزولاً وأسبق ترتيبًا في المصحف. فمثلاً إن سورةَ الإسراء تفصّل بعض المسائل المذكورة في سورة النحل، مع أن "الإسراء" أسبقُ من "النحل" نزولاً وآخرُ ترتيبًا في المصحف. وهذا يشكّل برهانًا ساطعًا على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

غير أننا لسنا بحاجة إلى مثل هذا الجواب هنا، إذ بوسعنا أن نحل هذه المعضلة سائرين مع الترتيب الطبيعي لنـــزول آيات القرآن الكريم أيضًا. وبيان ذلك أنه ثابت من القرآن نفسه أن سورة النحل أسبق نزولاً من سورة الأنعام، حيث نجد في "الأنعام" آيتين تشيران إلى موضوع سورة النحل؛ إحداهما قوله تعالى ﴿وقد فصّل لكم ما حرّم عليكم إلا ما اضطُررتم إليه﴾(الآية:١٢٠)، وثانيتهما قوله

تعالى ﴿قُلْ لا أَجِدُ في ما أُوحِيَ إلي مُحرَّمًا على طاعمٍ يَطعَمُه إلا أن يكونَ مَيْتةً أو دَمًا مسفوحًا أو لحمَ خِنــزيرٍ فإنه رِجْــسٌ أو فِســقًا أُهِلَّ لِغيرِ اللَّه به﴾ (الآية: ١٤٦). كما أن التاريخ أيضًا يؤكد أن سورة النحل أسبق نزولاً من سورة الأنعام حيث ورد أن أحكام التحريم والتحليل هذه نزلت بعد حادثة الإسراء التي وقعت قبل الهجرة بفترة تتراوح ما بين ستة أشهر إلى سنة (الطبقات الكبرى لابن سعد: ذكر المعراج). كما تؤكد الأحاديث أيضًا أن سورة الأنعام نزلت كلها جملةً واحدة لا على أقساط (تفسير "الإتقان" والمعجم الكبير للطبراني). فثبت أن سورة الأنعام نزلت بعد سورة النحل وأن ما ورد في آيتي "الأَنعام" المذكورتين أعلاه إنما هو إشارة إلى ما ورد في سورة النحل نفسها.

أما السؤال: ما هو المراد من قوله تعالى ﴿مِن قبل﴾ فجوابه سهل جدًّا، ولا ندري لِم لَم ينتبه إليه المفسرون. الواقع أن ﴿مِن قبل﴾ ليس إشارةً إلى أية سورة نزلت من قبل سورة النحل وإنما هي إشارة إلى آية وردت قبل قليل في سورة النحل نفسها، حيث قال الله تعالى فيها قبل هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها بآيتين: ﴿إنما حرَّم عليكم المَيْتةَ والدمَ ولَحْمَ الخنــزيرِ وما أُهِلَّ لغير اللَّه به فمَنِ اضْطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فإن اللَّهَ غفور رحيم﴾(الآية: ١١٦). إذن فقوله ﴿مِن قبل﴾ إشارةٌ إلى هذه الآية السابقة، إذ ليس ضروريًّا، لاستخدام تعبير ﴿من قبل﴾، أن يكون الأمر المشار إليه قد وقع قبل سنة أو سنتين، بل كثيرًا ما يقول المؤلف "لقد كتبت من قبل"، ولا يريد به كتابًا آخر له، بل يقصد به أمرًا قد مرّ ذكره في الكتاب نفسه قبل بضعة أسطر.

أما قوله تعالى ﴿وما ظلَمْناهم ولكِنْ كانوا أنفسَهم يظلِمون﴾ فهو إشارة إلى ما حُرِّم على اليهود من أشياء أخرى مثل شحوم البقر والغنم، فالله تعالى يخبر أن هذا التحريم لم يكن حقيقيًّا أبديًّا، بل فُرض عليهم عقابًا على بغيهم وظلمهم. وقد ذكر الله ﷻ هذا التحريم بالتفصيل في سورة الأنعام بقوله ﴿ومِنَ البقَرِ

والغَنَمِ حَرَّمْنا عليهم شحومَهما إلا ما حمَلتْ ظهورُهما أَوِ الْحَوايا أو ما اخْتَلَطَ بعَظْمٍ ذلك جَزَيْناهم بِبَغْيِهم وإنّا لصادقون﴾(الآية: ١٤٧).

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٩﴾

شرح الكلمات:

السوء: ما يَغُمُّ الإنسانَ من الأمور الدنيوية والأخروية من الأحوال النفسية والبدنية والخارجة من فوات مالٍ وجاهٍ وفَقْد حميمٍ (المفردات).

جَهالة: جهله جهالةً: ضدُّ علمه. الجهالة: ضدُّ العلم والمعرفة (الأقرب).

التفسير: لقد أخبر الله ﷻ من قبل أن اليهود ارتكبوا الظلم والعصيان فحلّتْ بهم البلايا والآلام عقابًا لهم، أما هنا فينبّههم أنهم لو تابوا الآن لوجدوا الله- رغم خطيئاتهم السابقة - غفورًا رحيمًا.

والحق أن هذا القانون ليس خاصًّا باليهود بل هو عام يشمل الناس كافة. ذلك لأن الآباء يتألمون طبعًا بحلول المصائب بأولادهم كأن يمرض أحدهم مثلاً؛ فكما أنهم يتأذون من أجلهم في الدنيا فإنهم سيتألمون في الآخرة ألمًا شديدًا لو دخل أولادهم النار. فقد ورد في الحديث الشريف أن النبي ﷺ سيتألم يوم القيامة حين يرى بعضَ الناس الذين كانوا أصحابًا له في الظاهر يدخلون النار حيث قال ﷺ: "إنه يُجاء برجال من أمّتي فيؤخذ بهم ذاتَ الشمال، فأقول: أُصيحابي أُصيحابي" (البخاري: كتاب التفسير سورة المائدة). فلكي ينجي الله ﷻ عباده المحبوبين من هذه الآلام فإنه يعامل ذريتَهم بلطف خاص، كما صرح بذلك في قوله ﴿والذين آمَنوا واتَّبعَتْهم ذُرّيّتُهم بإيمانٍ أَلْحَقْنا بهم ذُرّيّتَهم﴾(الطور: ٢٢).. أي أنه تعالى سوف يُلحق بهم في الجنة أولادَهم وإن كان أولادهم أضعفَ منهم إيمانًا. ومن أجل ذلك نجد القرآن يَعِدُ الأنبياءَ والصالحين مرارًا بأن الله تعالى سوف يعاملهم

بفضل خاص من عنده، لكيلا يتأذوا بما يصيب أولادَهم من عذاب. وبما أن القرآن الكريم يعلن: ﴿وإنْ من أمةٍ إلا خلا فيها نذير﴾، فثبت أن كل قوم يحظى بهذا الفضل الإلهي الخاص، ولا خصوصية لليهود في ذلك.

أما قوله تعالى ﴿للذين عملوا السوءَ بجهالة﴾ فاعلم أن الجهالة لا تعني هنا عدم العلم بل تعني عدم العرفان، لأن الذي يرتكب الخطأ لعدم العلم لا يعاقَب. فالمراد أن الذي يعمل السوء لعدم العرفان- أي أنه يعلم أن ذلك العمل إثم، ولكنه لقلة التقوى وخشية الله ﷻ لا يضبط نفسه ويقع في السوء - يستوجب العقاب إلا أن يتوب، لأن تقاعُس المرء عن كسب التقوى رغم علمه بضرورته يُعتبر إثمًا متعمَّدًا.

والحق أن العرفان هو الذي ينجي المرء من الإثم، أما الذين يرون الكفاية في العلم الظاهر فإنهم يقعون في المعاصي في آخر المطاف. فعلى الإنسان أن يسعى دومًا ليزداد عرفانًا أي خشيةَ الله وتقواه ﷻ.

واعلَمْ أن الجهالة نوعان: أبدية ومؤقتة. فمن كان فريسة للجهالة الأبدية يبقى محرومًا من العرفان كليةً، إذ لا يجد اللذة إلا في الإثم. أما الجهالة المؤقتة فقد يصاب بها حتى العارفون الذين ليسوا على درجة عالية، لأن مستوى عرفانهم يهبط في بعض الأحيان فيقعون فريسة لأهواء النفس. فقد ورد في الحديث الشريف: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، فيخرج منه الإيمانُ فيصير فوق رأسه كالظُّـــلّة *. أي أن حالة قلب المؤمن لا تكون حالةَ إيمان في ذلك الوقت. وقد قال بعض الشارحين في قوله ﷺ: "فيصير فوق رأسه كالظُّـــلّة" أن الإيمان يشفع له عند الله تعالى.

* ورد في الحديث بهذا المعنى: "إذا زَنَى العَبدُ خَرَجَ منه الإيمانُ فكان فوق رأْسه كالظُّلَّة، فإذا خرج مِن ذلك العملِ عاد إليه الإيمانُ" (الترمذي: أبواب الإيمان، باب لا يزني الزاني).

وأما قوله تعالى ﴿ثم تابوا من بعد ذلك وأصلَحوا﴾ فأخبر فيه أن على الإنسان أن لا يكتفي بأن يتوب في قلبه فحسب، بل عليه أن يهتم بإزالة العوامل التي حملته على الإثم، حتى لا يعود لمثله أبدًا.

أما إذا كانت كلمة ﴿وأصلحوا﴾ بمعنى إصلاح الآخرين فالمراد أن عليه أن يهتم بإصلاح الآخرين أيضًا كفّارةً لذنوبه، ليثاب على هدايتهم، حتى إذا بقي نقص في أعماله سُدّ بهذا الأجر.

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾

شرح الكلمات:

أُمّة: الأُمة: الإمامُ؛ الرجلُ الذي لا نظيرَ له؛ معلِّم للخير؛ الجامعُ للخير (التاج).

قانتًا: قَنَتَ يقنُت قُنوتًا: أطاعَ، يقال: قنَت اللهَ وقنَت لله. وقنَت له: ذلَّ. وقنَت: دعا؛ قام في الصلاة؛ أمسَكَ عن الكلام. القانت: القائمُ بالطاعة الدائمُ عليها؛ المصلّي (الأقرب).

حنيفًا: الحنيف: الصحيحُ الميل إلى الإسلام الثابتُ عليه؛ المائلُ عن دين إلى دين؛ المسلمُ، جمعُه الحنفاءُ (الأقرب).

التفسير: لقد ذكر الله ﷻ هنا عدة صفات لإبراهيم عليه السلام. فسمّاه أولاً أُمّةً، وله ثلاثة معان:

١- أنه كان معلّمًا للخير.

٢- أنه كان جامعًا للخير إذ كان متحليًّا بسائر الأخلاق الفاضلة.

٣- أنه كان ذا فطرة عالية مزودة بالقوى والكفاءات التي تُنشئ الأممَ، وكأنه كان بمثابة النواة لشجرة الأمة.

ومن صفاته الأخرى:

٤- أنه كان قانتًا لله.. أي مطيعًا له، كثير الدعاء.

٥- أنه كان حنيفًا.. أي كان عنده مقاومة شديدة ضد الباطل، فما كان ينثني عن الحق أبدًا.

٦- أنه لم يكن من المشركين.. بمعنى أنه كان موحِّدًا كاملاً. ومفهوم التوحيد الكامل مستفاد من كون هذه الجملة جاءت بعد الصفتين: ﴿قانتًا لله حنيفًا﴾، مما يوضح أن قوله تعالى ﴿ولم يَكُ من المشركين﴾ لا يراد به موحِّدًا عاديًّا. الحق أن المرء ذا المزايا والكفاءات بشكل ملحوظ يصاب عمومًا بالزهو والعُجب والأنانية والاعتداد بالنفس، وهذا أيضًا نوع من الشرك. فالله تعالى يخبرنا أن إبراهيم - بالرغم من كونه متحليًّا بهذه المحاسن والكفاءات - لم يزل عبدًا لربه، ولم يقع في الشرك قط بعَزْوِ أيٍّ من هذه المزايا إلى ذكائه ومهارته.

شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾

شرح الكلمات:

اجْتَباه: اختاره واصطفاه (الأقرب).

التفسير: أي أن إبراهيم عليه السلام كان يرى أن كل ما فيه من محاسن ومزايا إنما هو عطية ربانية، وأن كل هذه الكفاءات إنما هي هبة من الله تعالى، ولذلك كلما تألقت محاسنه ازداد شكرًا لله وإنابةً إليه سبحانه وتعالى.

من سنة الله عز وجل أن الإنسان حين يتحلى بهذه الصفات الحسنة فإنه تعالى يصطفيه ليشمله بفضل خاص من عنده، ولأجل ذلك قال الله تعالى عقبَ ذلك ﴿اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم﴾.. أي من أجل هذه المحاسن في إبراهيم أحببناه واصطفيناه لأنفسنا.

لقد قال الله ﷻ في صفة هذا الصراط إنه ﴿مستقيم﴾ ليشير إلى أنه كان طريقًا مؤدّيًا إلى الله تعالى، لأن الخط المستقيم إنما هو ذلك الذي يكون بين نقطتين، وفي المصطلح الديني يكون اللهُ تعالى والعبد بمثابة هاتين النقطتين؛ فالصراط الذي يوصل العبد إلى الله تعالى هو المستقيم، أما الذي لا يوصل إليه تعالى فلا يمكن أن يوصف بالاستقامة لأنه ينحرف عن جهة النقطة التي هي الغاية.

هذا، وعلاقة هذه الآية بما قبلها هي أن الله تعالى قد نبّه المسلمين من قبل أنه سوف يمتّعهم بنعمه، فعليهم أن لا يكونوا مثل أهل مكة الذين رفضوا الشريعة السماوية أصلاً، مكتفين بما اخترعوه من عند أنفسهم من قوانين وعادات؛ كما على المسلمين أن لا يكونوا مثل اليهود أيضًا الذين اختلفوا في شريعة الله وخالفوها؛ أما الآن فيخبر الله ﷻ المسلمين بما يريده منهم، فيقول: عليكم أن تكونوا كعبدنا إبراهيم، وتتصفوا بمثل صفاته، لكي نعاملكم كمعاملتنا إياه. أما كيف عامَلَ الله إبراهيم عليه السلام فهو مذكور في الآية التالية.

وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾

التفسير: يخبر الله تعالى أنه بسبب هذه المزايا وفّقنا إبراهيمَ لإحراز رقيّ عظيم في الدنيا والآخرة؛ فمنحناه حياة رخاء وراحة، وجعلناه في الآخرة من الصالحين.

واعلم أن كون إبراهيم في الآخرة من الصالحين يعني أنه سيُبعَث في الآخرة بكفاءات ملائمة تمامًا مع الترقيات العليا التي تكون في الآخرة.. بمعنى أنه عليه السلام سيُبعث جاهزًا لأن يفوز بأسمى النعم وينتفع بها.

وقال الله تعالى ﴿وآتيناه في الدنيا حسنةً﴾ ليؤكد أننا نحن الذين وهبنا له هذه النعم. كما بين بذلك أنه لا يمكن لأحد أن يقول بأن إبراهيم لم يحرز أي رقي مادي لذلك فلم يكن أمامه أية فرصة ليفسد! كلا، بل أعطيناه الرقي المادي أيضًا. والتوراة أيضًا تؤكد أنه بالرغم من أن إبراهيم هاجر من وطنه ولكن الله

تعالى أصلح وضعه المادي، كما منحه الحُكم (تكوين ١٣: ٢ و١٤ - ١٦)، ومع ذلك لم يبرح عاكفًا على عتبة الله ﷻ.

فكأن الله ينصح المسلمين: إذا نلتم الحكم والمُلك فاعتبروا كل تقدم وانتصارٍ نعمةً إلهية وأمانةً ربانية، كما فعَل إبراهيم، ولا تكوننّ من المتكبرين.

ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٤﴾

شرح الكلمات:

ملة: الملة: الشريعةُ أو الدِّينُ. وقيل: الملةُ والطريقةُ سواء، وهي اسمٌ من أمليتُ الكتابَ، ثم نُقلتْ إلى أصول الشرائع باعتبار أنها يمليها النبي، وقد تُطلَق على الباطل كـ "الكفرُ ملةٌ واحدةٌ"، ولا تضاف إلى الله ولا إلى آحاد الأمة (الأقرب).

التفسير: لقد أوضح الله ﷻ هنا نفس المعنى الذي أشرتُ إليه آنفًا، حيث نبّه المسلمين إلى ضرورة اتباع سنة إبراهيم، مؤكدًا أنه ﴿ما كان من المشركين﴾.. أي لا تتغافلوا، أيها المسلمون، عن الإيمان بالله تعالى والتوكل عليه إبّانَ الانتصارات والترقيات.

لقد قام بعض النصارى باستنتاج خاطئ من هذا حيث قالوا إن محمدًا ﷺ كان مجرد تابع لدين إبراهيم (تفسير القرآن لـ "ويري"، وحياة محمد للسير وليم ميور ج ٢ص ١٥٦).

الحق أن الآية لا تقصد هذا أبدًا، وإنما يأمر الله نبيه أن يكون كامل الشكر لله ﷻ وكامل التوكل عليه كما كان إبراهيم. إنه تعالى لم يأمره أبدًا باتباع إبراهيم في الأحكام التفصيلية، وإنما فيما ذُكر أعلاه فقط. وأي شك في أن كل إنسان بحاجة إلى اتباع إبراهيم في هذا المجال، ولا غنى لأحد - بدايةً من آدم إلى آخر شخص في الدنيا - عن التحلي بهذه الصفات. والحق أن جميع أهل الله قبل

إبراهيم كانوا متصفين بهذه المحاسن مثله، ولكن الله ﷻ قد خصّ إبراهيم بالذكر هنا لأن أهل مكة كانوا يعتبرونه أبًا لهم(محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ٥٦). وأي شك في أن استثارة مشاعر الغيرة لدى الناس بذكر آبائهم خير سبيل لنصحهم وإصلاحهم.

لم يملك السير وليم ميور إلا أن يعلّق على هذه الآية قائلاً: لقد انكشف على محمد في زمن تلك الجاهلية أن الله تعالى لم يزل يرسل أنبياءه إلى جميع الأمم على مر العصور.

كذلك يُجري اللهُ ﷻ الحقَّ على لسان العدو أحيانًا!

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٥﴾

شرح الكلمات:

السبتُ: سبَت الرجلُ سَبْتًا: استراح. السبتُ: يومٌ من أيام الأسبوع بين الجمعة والأحد (الأقرب).

التفسير: لقد احتار المفسرون حيرة كبيرة بسبب ذكر القرآن السبتَ هنا في سورة النحل مع أنها مكية!

وقد أجاب عليه المستشرقون بجواب غريب فقالوا: يبدو من ذلك أنه كان هناك حديث عن اليهود في هذه السورة قبل هذه الآية، ولكن الآيات التي كانت تشتمل على ذكر اليهود ضاعت من القرآن، ولذلك لا نجد في العبارة القرآنية هنا ترابطًا.

أما المفسرون فقد علل بعضهم ذلك بقوله: بما أن الله تعالى يأمر المسلمين هنا بفعل الصالحات، فأشار هنا إلى واحد من تعليماته لليهود الذين خالفوا أمر الله فعوقبوا؛ لكي يأخذ المسلمون الحيطة والحذر فيما يتعلق بأحكام الله تعالى.

أما قوله تعالى ﴿جُعل السبت﴾ فقال البعض إن تقديره: "جُعل وبال مخالفة السبت"، والمعنى: إنما نزل عقاب مخالفة السبت على الذين اختلفوا في أمره (الكشاف).

بينما قال أحد المفسرين المعاصرين أن السبت هنا بمعنى القطع (انظر بيان القرآن). ولكن هذا ليس بصحيح، لأن العرب لا يستعملون السبت بهذا المعنى في مثل هذه المناسبة ألبتة.

وعندي أن السبت هنا يعني وبال السبت. وهناك نظائر كثيرة في القرآن الكريم والأدب العربي لحذف المضاف كما حصل هنا. فالمعنى إنما وقع وبال السبت على الذين اختلفوا فيه. ولقد أكد القرآن في سورة البقرة أيضًا أن اليهود عوقبوا بسبب مخالفة السبت (الآيتان: ٦٦و ٦٧).

أما السؤال: ما علاقة السبت بالآيات السابقة فجوابه كالآتي: كان عند اليهود- قبل نزول القرآن بل حتى اليوم - اعتقاد بأن كل ما لاقَوه من هلاك ودمار إنما سببه مخالفتهم للسبت، وأنه لن يُكتب لهم العز والغلبة ما لم يقيموا حرمة السبت مرة أخرى. ففي قرننا هذا العشرين الذي نجد فيه المسلمين ينتهكون حرمة يوم الجمعة والمسيحيين ينتهكون حرمة يوم الأحد.. نجد لدى اليهود جمعيات دينية تدعو إلى توطيد حرمة السبت. وقد حدث أن حاول أصحابها إكراهَ الناس على احترام السبت في بعض القرى بفلسطين مما أدى إلى نشوب الفتن والفساد في أماكن عديدة.

لقد قيل لليهود في الآيات السابقة إن رقيكم منوط الآن بقبول الإسلام، لذا كان من الممكن أن يفكّروا في أنفسهم أنهم لو أسلموا فلن يستطيعوا احترام السبت الذي هو مدار رقيهم في الواقع، لأن المسلمين يحترمون الجمعة لا السبت،

فكان لزامًا على القرآن أن يرد على هذه المخاوف اليهودية، وجاء الرد عليها هنا في هذه الآية، حيث يحذر الله اليهود بقوله إنما تهلك الأمم بسبب مخالفة أوامر الله تعالى، وأن اليهود لم يهلكوا من قبل إلا جراء مخالفتهم أوامرَ الله تعالى عن حرمة السبت؛ وما دام الله يأمرهم الآن أن يدخلوا معه في عهد جديد عن طريق الإسلام، فعليهم أن يدركوا أن من يخالف هذا الأمر الإلهي الجديد سيجلب على نفسه الدمار، وبالتالي لن ينال اليهود العزة مرة أخرى وإن أقاموا حرمة السبت الآن، وإنما ينالونه الآن بقبول الإسلام والعمل بتعاليمه لا غير.

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

شرح الكلمات:

الحكمة: العدلُ؛ العلمُ؛ الحلمُ؛ النبوةُ؛ وقيل: ما يمنع من الجهل؛ وقيل: كلُّ كلامٍ موافقٍ الحقَّ؛ وقيل: وضعُ الشيء في موضعه وصوابُ الأمر وسدادُه (الأقرب).

التفسير: لما كان أوان انتشار الإسلام على نطاق واسع قد حان، وكان على المسلمين أن يصدعوا بالدعوة بين اليهود والنصارى الذين كانت لديهم أسفارهم.. لذا نبّه الله ﷻ المسلمين إلى ضرورة اتخاذ موقف أقوى في مواجهة هؤلاء؛ لأنه لدى الحوار مع المشركين ما كان على المسلمين – لحسم الأمر نهائيًا – إلا أن يبطلوا عقيدة الشرك فقط، ولكن لدى مواجهة أهل الكتاب لم يكن للمسلمين بد من الخوض في نقاشات مستفيضة للمقارنة بين الإسلام وشرائع

الكتابيّين، فأمر الله ﷻ المسلمين منذ البداية أن يلتزموا الحكمة دومًا عند مناظرة أهل الكتاب.

علمًا أن كل المعاني التي سجّلناها لكلمة "الحكمة" تنطبق هنا. خذوا منها مثلاً العلم، فتعني الآية على ضوء هذا المعنى: عليكم أن تدعوا أهل الكتاب إلى الإسلام بناء على ما ورد في صحف أنبيائهم من أدلة علمية.

ولكن المؤسف أن المفسرين لم يُولُوا هذا الأمر الرباني العناية الكافية، فنقلوا في تفاسيرهم كل ما سمعوه عن التوراة من رطب ويابس، مما جعل الإسلام عرضةً لمطاعن المسيحيين إلى اليوم.

ومن معاني الحكمة صوابُ الأمر وسداده.. فتعني الآية: عليكم أن تواجهوهم بدليل قوي ليس بهزل؛ ذلك لأن بعض الناس يخطئون أثناء النقاش حيث يقدمون الأدلة الثانوية مكان الأدلة الرئيسية الحيوية، مما يتيح للخصم أن يعترض أكثر فأكثر؛ لذلك أمر الله ﷻ المسلمين أن يزِنوا الأدلة أولاً، ولا يتصدوا للخصم إلا بما هو أقوى وأفضل البراهين.

ومن معاني الحكمة العدلُ.. فتعني الآية: عليكم أن لا تخاصموهم بما يمكن أن يرتد عليكم، لأن هذا الأسلوب بعيد عن الإنصاف، كما يتيح للخصم فرصة الطعن، مما يعرّضكم للندم والفضيحة.

الحق أن ما يثيره الآريون الهندوس والمسيحيون اليوم من اعتراضات ضد الإسلام ليس عدلاً.. بمعنى أنهم يثيرون ضد الإسلام الاعتراضات التي تقع على دياناتهم بشكل أشد. فإذا كانت التعاليم الإسلامية التي يعتبرونها خاطئة فلماذا يدينون إذًا بأديانهم التي فيها تعليمات مماثلة؟!

وبالرغم أن الإسلام ينهى عن إثارة مثل هذه المطاعن، إلا أن مسلمي اليوم غافلون، للأسف، عن هذا التعليم الرباني كليةً، حيث يثيرون ضد مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية من الاعتراضات ما يُعتبر قاسمًا مشترَكًا بين الأنبياء والمرسلين جميعًا. فلو اعتُبرت هذه المطاعن صحيحة لكان معنى ذلك أن هؤلاء

الطاعنين يكفرون في الواقع بالأنبياء كافة، لأن تلك الاعتراضات قد وُجّهت إلى الأنبياء الآخرين أيضًا!

ومن معاني الحكمة الحِلمُ.. فتعني الآية: عليكم أن تناقشوهم بالرفق والعقل، لأن الذي يحتد في النقاش حماسًا وغيظًا لا يستطيع أن يُقنع خصمه.

ومن معاني الحكمة النبوةُ.. فتعني الآية: عليكم أن تَدْعوهم بناء على ما عندكم من الوحي.. أي ناقِشوهم بناء على ما ذكره القرآن الكريم من الأدلة والبراهين، لا بالتُّرّهات من عند أنفسكم.

آه! لو أن المسلمين استوعبوا هذا الدرس لأتوا على اليهودية والنصرانية، لأن سلاحنا إنما هو القرآن الكريم الذي أمرنا الله ﷻ في شأنه ﴿وجاهِدْهم به جهادًا كبيرًا﴾ (الفرقان: ٥٣).. أي اخرُجْ لجهاد الدنيا متقلدًا سيف القرآن. ولكن مما يؤسف لـــه أن المسلمين اليوم يحملون في أيديهم كل سلاح غير هذا السلاح الذي أمرهم الله بأخذه!

ومن معاني الحكمة "ما يمنع من الجهل".. فتعني الآية: عليكم أن تكلّموا الناس بكلام مفهوم لا يسبب عندهم سوء الفهم، بل يزيل جهلهم. ورد في الحديث الشريف: "أمرَنا (رسولُ الله ﷺ) أن نكلّم الناسَ على قدر عقولهم" (فردوس الأخبار للديلمي، فصل: أُمرتُ، أُمرنا). إن بعض الناس يستعمل في حديثه كلمات فخمة ومصطلحات صعبة، ومما لا شك فيه أن مثل هذا الكلام الفخم يمكن أن يرعب الجاهلين، ولكنه لن ينفعهم شيئًا، ولن يزيل جهلهم أبدًا.

ومن معاني الحكمة "كل كلام موافقٍ الحقَّ".. فتعني الآية: عليكم أن تقولوا ما هو مطابق للحق والواقع؛ ذلك لأن بعض الناس يذكرون أثناء الحوار أمورًا زائفة تخالف الواقع زاعمين أنهم ما داموا يؤيدون الدين الحق فلا بأس من الكذب! ولكن الله تعالى يحذرنا أن هذا الطريق ليس بسليم. فكل ما تقولون ضد أعداء الحق يجب أن يكون حقًّا وصدقًا. لا تنحرفوا أنتم عن الصراط المستقيم محاولين هداية الآخرين. وقد أكد الله على هذا المعنى في موضع آخر حيث قال ﴿لا

يَضُرُّكم من ضلَّ إذا اهتديتم﴾(المائدة: ١٠٦).. أي لا تقولوا ما هو باطل وإثم ولو بقصد هداية الآخرين. عندما لا يهتدي الغير إلا على حساب هدايتكم فاهتموا أولاً بهدايتكم، مفوِّضين أمرَ هداية الآخرين إلى الله تعالى، لأنه تعالى يريد أن يهدي من ليس على الهدى، وليس أن يصير المؤمن كافرًا من أجل هداية الكافر.

ومن معاني الحكمة "وضعُ الشيء في موضعه".. فتعني الآية: عليكم أن يكون كلامكم أثناء التبليغ متلائمًا مع مقتضى الحال والظرف. فمثلاً إذا كان هناك خطر أن الخصم سيثور بسماع أدلة معينة ولن يستمع لكم فلا حاجة لإثارته بذكر تلك الأدلة، بل عليكم أن تَعرِضوا عليه أدلة أخرى يستمع لها في هدوء. وكأنه تعالى يأمرنا أن نجسّ نبض الخصم قبل إجراء الحوار، لأن إثارة حفيظته بدون داع لن تجدي نفعًا.

يا لها من فصاحة وبلاغة! فبكلمات موجزة جدًّا بيّن الله ﷻ هنا أساليب الدعوة كلَّها، بحيث إذا عمل بها أحد فمن المستحيل أن يفشل في مقصده.

ثم قال الله تعالى ﴿والموعظة الحسنة﴾..أي ناقشوهم بما يليّن قلوبهم ويؤثر فيها. وقد نبّه الله بذلك المسلمين أن لا يَدْعوا الناس إلى الإسلام بكلام جافّ، بل بما يثير العواطف ويأخذ بمجامع القلوب، إلى جانب الالتزام بالحكمة.

وقد وصف الله ﷻ الموعظة بالحُسن لينهاهم عن استثارة العواطف بقول باطل. ومثاله ما يفعل بعض المشايخ الجاهلين في هذه الأيام حيث يؤججون عواطف الناس ضد الصلحاء دونما ذنب.

ثم قال تعالى ﴿وجادِلْهم بالتي هي أحسنُ﴾.. أي عند نقاشهم يجب أن تؤسسوا حواركم على أقوى البراهين وأفضلها، أما ما سواها من الأدلة الهامشية فاجعلوه تابعًا لها، لأن سقوط الدليل الهامشي لا يضر بالدليل الجوهري المحوري، ولكن لو كان الدليل الحيوي الجوهري ضعيفًا فلا تنفع عندئذ حتى الأدلة الجانبية وإن كانت في حد ذاتها قوية دامغة.

وأما قوله تعالى ﴿إن ربك هو أعلم بمَن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ فنصح به أن واجبكم نشر الدعوة بأقصى ما يمكن، ولكن إذا لم يقبلها القوم فلا تيئسوا ظانين أنكم لا تعرفون أسلوب الدعوة الناجحة، إذ من الممكن أن يكون أسلوبكم سليمًا من أي عيب، ويكون العيب بقلوب القوم التي قد أصابها صدأ الذنوب لدرجة لا يريد الله أن تنفذ إليها الهداية. فلا تملّوا من التبليغ، وفوِّضوا أمر التأثير والنتائج إلى الله تعالى، فهو وحده القادر على ذلك.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٧﴾

شرح الكلمات:

عاقَبتم: عاقَبَ فلانًا بذنبه وعلى ذنبه معاقبةً وعِقابًا: أخَذه به (الأقرب).

التفسير: قال بعض المفسرين أن هذه الآية ناسخة لما قبلها، ولكني لا أفهم ما الذي حملهم على هذا القول؟ هل إدارةُ الحوار بطريقة علمية، أو الالتزامُ بالحكمة والسداد والصدق والحلم خلال الحديث، هو من الأمور التي يمكن نسخها؟

كل ما تعنيه هذه الآية هو أن الأعداء لن يرضَوا بدعوتكم المليئة بالحكمة والموعظة الحسنة، بل سوف يشهرون السيوف لقتلكم، وعندها يحق لكم رفع السيف ضدهم دفاعًا عن النفس.

ما أشدَّ هذا الكلامَ إعجازًا! ففي الوقت الذي كان النبي ﷺ بمكة، حيث لم يكن قد خاض بعد في أي نقاش وخصام مع اليهود والنصارى.. يخبره الله تعالى أن هؤلاء القوم هم الآخرون سيعتدون عليكم ويضطهدونكم، ونحن نسمح لكم بالتصدي لهم عندئذ دفاعًا. ولكن نوصيكم ألا تتسرعوا، بل يجب أن تصبروا ما

استطعتم إلى ذلك سبيلاً، أما إذا لم يبق أمامكم مناص ولا مهرب فقاتِلوهم ردًّا لعدوانهم.

ولقد عمل النبي ﷺ بهذا الحكم الرباني تمامًا، فتحمَّلَ الأذى من قِبل أهل الكتاب فترة طويلة، ولما لم يبق أمامه خيار آخر خرج مضطرًّا لقتالهم.

ما أسمى ما يعلّمنا القرآن الكريم من أخلاق! فإنه قبل السماح بالقتال يبيّن حدود القتال وقيوده وشروطه حتى لا يبقى هناك احتمال للظلم والعدوان.

أما قوله تعالى ﴿وإنْ عاقَبتم فعاقِبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ فقد بيّن به أن الجهاد إنما هو ذلك الذي يكون ردًّا لعدوان الظالم، وأما الاعتداء على قوم بظلم فلا يمكن أن يسمّى جهادًا؛ ذلك لأن كلمة ﴿عاقبتم﴾ مشتقة من العقاب الذي يطلَق على ما يكون جوابًا على فعل ارتكبه شخص آخر. فقد أوصانا الله تعالى بذلك أن لا نعاقب أحدًا إلا على جريمة ارتكبها.

كما نبّه بقوله تعالى ﴿فعاقِبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ إلى أنكم لو اضطررتم لمعاقبة أحد فيجب أن لا تعاقبوه بأكثر مما آذاكم به.

وبقوله تعالى ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ رغّب في الصبر على عدوان العدو، لأن الصبر خيرٌ بكثير من حيث النتائج والعواقب. ففي معركة أُحُد مثّل الكفار بجثث شهداء المسلمين كحمزة عمِّ النبي ﷺ وغيره، حيث جدعوا آذانهم وأنوفهم، ولكنه ﷺ بالرغم من تمكُّنه من الكفار صبر ولم يسمح لأتباعه بهذه الفعلة القبيحة المسيئة إلى الإنسانية. كما أنه ﷺ ظل صابرًا على مخالفة الكفار للمعاهدات أحيانًا (الدر المنثور، والسيرة النبوية لابن هشام: غزوة أحد)؛ ذلك لأن عاقبة الصبر جميل. لا شك أن الانتقام يُخمد ثورة الغضب لدى المنتقم، ولكن الصبر يزيد الإنسان روحانيةً.

وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٨

شرح الكلمات:

ضَيْق: ضاق الشيءُ يضيق ضِيقًا وضَيقًا: ضدُّ اتسعَ. ضاق الرجلُ: بخِل. الضَيق: الشكُّ في القلب؛ ما ضاقَ عنه صدرُك (الأقرب).

التفسير: لم يرد الصبر هنا تكرارًا وبالمعنى السابق، بل ورد لسبب آخر. ذلك لأنه لما نزل الإذن بقتال الكفار أدرك النبي ﷺ أن العذاب موشك عليهم، فشقّ عليه هذا الخبر، وامتلأ قلبه حزنًا عليهم، فخفف الله على رسوله وقال: عليك بالصبر الآن، لأن هذا هو قرارنا. وكأنه ﷻ يواسي الرسول ﷺ على صدمته بسماع مصير الكفار.

هذه الآية تكشف لنا مكارم الأخلاق النبوية. كانوا يؤذونه ﷺ ليل نهار، محاولين قتله بكل وسيلة، ولكنه حين يتلقى خبر هلاكهم يأخذ القلق والحزن منه كل مأخذ حتى يقول الله تعالى له مواسيًا: ﴿وما صبرك إلا بالله﴾.. إن هذه الصدمة تفوق احتمالك، ولن تصبر حتى نصبّرك نحن بتوفيق منا.

وقد تعني هذه الجملة: عليك بالصبر، لأن هذا الصبر ليس وراءه إلا طاعةُ أمر الله تعالى. وأي شك أن صبر المرء لدى قدرته على ضرب العدو هو الصبر الوحيد الذي يُعَدُّ من الأخلاق الفاضلة، وليس ذلك الذي يبديه الإنسان وهو لا يملك حيلةً ولا سبيلاً.

وقوله تعالى ﴿ولا تحزَنْ عليهم﴾ يؤيد ما ذهبتُ إليه من أن الصبر هنا لا يعني الصبر على أذى الكفار، وإنما على الألم والحزن الذي أصابه ﷺ بتلقي خبر هلاكهم.

أما قوله تعالى ﴿ولا تَكُ في ضَيقٍ مما يمكرون﴾، فأيضًا لا يعني أن لا تتضايق من مكر الكفار وشرورهم، وإنما هو تعبير عن الآلام التي قاساها النبي ﷺ بسماع خبر هلاك الكفار، حيث كانت حالته عندها كحالة الأم التي ترى أولادها معرَّضين للعقاب بسبب جرائمهم، ولا تستطيع إنقاذهم منه، فتأخذ في لومهم غاية اللوم؛ ولكن لومها هذا لا ينبع عن غضب منها، وإنما هو تعبير عن أحزانها وآلامها التي تعتريها بسببهم.. وكأنها تقول: لو لم ترتكبوا هذه الجرائم ما تعذبتم بأنفسكم كما لم تعذّبوني أنا المسكينة.

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٩﴾

التفسير: إن المتقي هو من يقوّي صلته بالله تعالى بحيث يصبح ﷻ جُنّةً وسترًا له يحفظه ويرعاه. وأما المحسن فهو من يحتمي بحمى الله ﷻ، ثم يسعى ليأتي بالدنيا إلى هذا الملاذ. إذًا فالمحسن أعلى درجة من المتقي. ومن الناس من يكون على مستوى عالٍ من الصلاح والتقوى، ولكنه لا يهتمّ بإنقاذ الآخرين، بينما هناك من يفكّر في إصلاح الغير دون أن يصلح نفسه. فالله تعالى يؤكد هنا أن من أراد أن يبلغ الكمال في وصال الله تعالى فعليه أن يكون متقيًا، ومحسنًا كذلك.

علمًا أن المتقي ليس من يعتزل شؤون الحياة اليومية، كلا، بل إن القرآن الكريم يعدّه جاهلاً؛ إنما المتقي من تتجلى خشية الله ﷻ في جميع أعماله. أما الذي يبقى عاطلاً ولا يقوم بأي عمل فكيف يمكن أن تستولي عليه خشية الله؟ إن كلمة "المتقي" نفسها تشير إلى أن هذا يخوض غمار الأخطار، ولكن الله تعالى يقيه ويحميه. إذن فالمتقي هو من يقوم بواجباته الدنيوية، ولكن من دون أن يتأثر بتأثيرها الضار.

وتذكَّروا أيضًا أن ليس المحسن من يسرف ويبذِّر، إذ قال النبي ﷺ: "أنْ تَدَعَ وَرَثَتَك أغنياءَ خيرٌ من أن تَدَعَهم عالةً يتكففون الناسَ في أيديهم" (البخاري: كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل). فمن معاني المحسن أيضًا من يقوم بأعمال تزيد الدنيا حسنًا وجمالاً، ولكن الذي يخرّب بيته هو بالتبذير والإسراف كيف يمكن أن يجلب الحسن على العالم. فالمحسن من يحمي أهل بيته أولاً ثم يتفقد أحوال الآخرين.

ولكن هذا لا يعني أيضًا أن يعيش الإنسان حياة بذخ ورخاء، وحين يأتي وقت الإنفاق على الآخرين يتلمس شتى الأعذار.

ومن معاني المحسن أيضًا من تأتي أعماله بنتائج جيدة. فالذي يأتي إنفاقه بنتائج سيئة، سواء من الناحية الأخلاقية أو الاجتماعية، فلا يمكن أن يُعَدَّ محسنًا.

هذا، وقد نبّأنا الله في هذه الآية أيضًا عن مآل الحرب بين المسلمين وأهل الكتاب، فأعلن أن الله ﷻ سيكون مع المسلمين؛ والبديهي أن من كان محظوظًا بمعية الله ﷻ يستحيل أن يتغلب عليه أحد.